نبضاتُ قلمٍ

نصوص مبعثرة

اسم الكتاب: نبضاتُ قلمٍ - نصوص مبعثرة

التأليف: ربيع السملالي

موضوع الكتاب: خواطر

عدد الصفحات: 304 صفحة

عدد الملازم: 15.5 ملزمة

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 259 / 2016

الترقيم الدولي: ISBN : 978 - 977 - 278 - 535 - 3

دار البشير للثقافة والعلوم

التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

Darelbasheer@hotmail.com

Darelbasheeralla@gmail.com

ت: 0115280653 - 01012355714

1437 هـ

2016م

نبضاتُ قلمٍ

نصوص مبعثرة

ربيع السملالي

دار البشير
للثقافة والعلوم

إهداء

إلى التي كانتْ ومازالتْ وستظلُّ
في أعماقي.. في روحي.. في قلبي مُطمئنّة
راسخةً كشجرةِ من أشجار الزّيزفون لا تَرِيم..
إلى جدّتي وحبيبتي الغالية "فاطمة السّملالي"
عليها رحمة الله أهدي هذا الكتاب!

شكر وتقدير وتوضيح

إنِّي امرؤ أحبُّ الاقتصادَ في الكلام، والاختصارَ فيه ما وسعني الاختصار، وأكره أن أكون ثرثارًا مِهْذَارًا مِتْلافًا لأوقاتِ القارئ في غير منفعة؛ لذلكَ تجدون أغلبَ ما أكتبه مختصرًا في غير إخلال فيما أعتقد.. فسامحوني على كلّ حال، وشكرًا لأوقاتكم الثّمينة التي ستنفقونها في سبيل القراءة لهذا القلم الذي وصفته بقولي:

"قلمي صعلوك ابن جارية لم

يستطع بعدُ أن يكون كغيره

منتصب القامة يمشي"!



بعد عشرين سنة من القراءة الجادّة، رأيتُ بصيصًا من نور المعرفة يلوح في أفق حياتي، يقول لي: هلمّ ولا تعجز؛ فلم تبقَ أمامك إلا عشرون سنة أخرى لتستحق اسم "مُثقّف"!

تقريظ الأديب الشاعر محمد بلبصير

ما أجملَ أن يَرْتَبِعَ الشّتاء، تحتَ سماءٍ توشَّحَتْ بقوسِ قُزَح، تبعثُ من بعيدٍ بأشعّة اختلَفَتْ ألوانُها كاختلاف حروفِ الهجاء؛ لِتُكَوّن في مجموعها لغةً واحدة، لا تجري إلَّا على لسان القدَر. ولعلَّ العصافيرَ الصّغيرةَ فَقِهَتْ تلك اللّغة، فانطلَقَتْ من أسْرِ أوكارها تُلَبّي نداءَ الحنين، في فضاء امتزجَ فيه المبتسِمُ بالحزين، فطرِبْنا لزقزقاتها واضطربنا كرقصاتها وهي ترثي أشجارًا سَلَبَها الشّتاءُ حُلّتها الخضراء، وألهبَ ظهرها صوتُ العواصف الهوجاء، لكن من يسمعُ الأشجارَ وهي تقول: لا بأس لا يأس، إنَّ في رَحِمِي أغصانًا يانعة، وبراعمَ زاهية، وأثمارًا عمّا قريب ستكون دانية.

هناكَ فوقَ خَدٍّ من خُدودِ الأرض الشّاحبة، الغارقةِ في دموعِ الشّتاء نقطةٌ تمخّضتْ فجاءتْ بما ناداها أنْ لا تحزني فقد طلعَ الرّبيع.

فتح هذا المولود الشّتوي الرّبيعيّ عينيه الصّغيرتين على كتاب كبير ليسَ لحروفه انتهاء، ولا يحيط بصفحاته إحصاء، كلُّ شيء لا يشبه ما حوله: شمس وشتاء، ليل ونهار، تصعّد وتسفّل، بياض وسواد، ضحِكٌ وبُكاء، عصافيرُ وصقور، غِزلان وذئاب.

هكذا هي مدرسة ربيع الأولى والتي لا ينتهي الطّلبُ فيها إلى إحاطة بعلم مُعيّن، ولا بتخصّص محدود، عليه أن يجمع كُلَّ شيء، ولو لم يفهم أيَّ شيء.

رحلَ الشّتاءُ وجاء الرّبيعُ وتبِعه الصّيف ثمّ الخريف، ليستأنِفَ الفَلَكُ دورانَه، تتشابه المشاهدُ الكونية، وتختلِفُ الأحداثُ والوقائعُ الإنسانية، ويحبو ربيع على الرّبيع ثمّ يركضُ مع الفراش ويسْتكِنُّ مِنَ الحرّ والقُرّ، وتكبَرُ العينان الصّغيرتان وهو يحاول أن يحفظَ أوّل جملة سُطّرت في الكتاب الكبير فلم يستطع أن يتجاوَزَها إلى غيرها.

"اعلم أيّها القلبُ الصّغيرُ بين تلك الأضلاع الضّيقة أنّكَ خُلِقْتَ لِتتحمّلَ ما أشفَقَتْ منه السّمواتُ والأرضُ والجبال" يا له من معنًى كبير فوق ما تطيقه الحُروف والكلمات، يُنْثَرُ أمامَ طِفْلٍ دون السّابعة، بل مازال صبيًّا تُهَدْهِدُه الأحلامُ كما تُهدْهدُ الأنسامُ أزهارَ الرّبيع. وقبلَ أن يستيقظَ الطّفلُ من أحلامه، وقبلَ أن يحفظَ الجُملةَ الأولى في كتابه، يتربّع هذا الصّغيرُ على عرش اليُتم، ليصيرَ صخرةً عاليةً أمام الرّياح العاتية، بين صدر أمّ رؤوم وجناح جدّة حَنون في زُقاق صغير وسط مجتمع تافه حقير.

والطّفلُ يرفُضُ من المعاني فُتاتَ الموائد ويطلبُ أفصحَ الشّواهد على أصل الأصول والقواعد.

واصلَ دربَه بين أمواج العلم الشّريف، والأدب المنيف ثمّ إلى الحبّ العنيف، فتحقّق له ما عجز عنه أمثالُه في العُنْفُوان، ولم يَفُتْه ما فات الرّكبانُ وتبوّأ أريكةَ القلم ليلقيَ شذراتِه الرّبيعيةَ في مِرآة صافية من منارة عالية تؤذّن في النّاس أن حيّ على الكتاب والله أكبرُ.

الشّيخ محمد بن إدريس بلبصير

يوم 28 **ذو الحجة** 1436 **هـ**

الموافق 12 **أكتوبر** 2015

بمدينة بني ملال

مقدمة

الكتابةُ "عندي" محاولة للهروب من وطن لا مكان فيه لأحلامنا، لأمنياتنا، لسعادتنا، محاولة للانفلات من ذواتنا المُترعة بخيبات الأيّام وخِذلان اللّيالي، أنا أكتب إذًا أنا غير موجود في ضمائر الذين لا يعلمون شيئًا عن الغُروب.

حينَ أكتبُ عنّي، أكتب عن الذّات المُتشظّية في داخل هذا المجتمع الهزيل، أكتب عن الرّوح التي تنشد الانعتاق في بِيئة لا ماء فيها ولا شجر، أكتب عن ضَعفي الإنساني الذي ورثته عن أجدادي من الموتى، أكتب عن تشتّتي وحيرتي تعبيرًا عن أناس ضائعين في وطن لا يشبه ملامحهم المُتجعّدة.

عندي مشاعرُ دافئة تعتريني، ولديَّ أحاسيسُ آدمية تستبدّ بي، ولي من العاطفة ما أستحقّ عليها اسم "إنسان"، لكن حين تُداعبني الفكرة في الحقّ الذي أؤمنُ به أتخلّى عن كلّ شيء وأتركه ورائي ظِهْريّا، ثمّ أكتب ما يمليه عليّ ضميري، غيرَ مستحضرٍ القرّاء ولا أشباه القُرّاء حينها، لأنّ رضا القارئ لا يهمّني، ولا ينبغي له أن يهمّني= لاسيما إن كان على حساب مبادئي وديني واعتقادي في الله، فلتنتفخ الأوداج، ولتحمرّ الأنوف، ولتبلغ القلوب الحناجرَ من الغيظ، ما دمتُ لا أدعو إلى باطل، ولا أحرّض على معصية، ولا أنتظر على كتاباتي جزاءً من

سيّد القبيلة، كما لا أنتظرُ شكرًا من حزب ضيّق الأفق يحرّكُ قلمي وقتما شاء وشاء له الهوى، فقلمي باختصار ليس كأعرابي في بلاد الأمريكان تستفزّه الأضواء فيكتب تحت نورها ما يريده الطّاغوت المتربّع في البيت الأبيض، والكتابة باختصار شيء تتسّلى به روحي المنهكة، كلّما ملّت منَ النّظر في هذه الكتب التي تملأ عليّ الدّنيا.

إنَّني لا أكتبُ- كما يفعلُ البعض- لأرى اسمِي مُرفرفًا على غلافِ مجلة، أو جِلْدةِ كتابٍ أنيقٍ يَسُر الناظرين، كلّا لم تكن هذه غايتي في يوم من الأيام، لأنني بحمد الله أعرفُ قدْرَ نفسي، واسمي لن يقدم أو يؤخر شيئًا في هذا العالم ولو كُتب بماء الفضَّة أو الذهب، وحتى لو عُرِضَ في واجهة زجاجية لامعة في شارع مشهور في مدينة عملاقة، فما قيمتُه إن لم يكن مضمونه رسالة سامية بمبادئ إسلامية تنتفِع بها الإنسانية جمعاء؟

وإنّي بحمد الله أعرفُ قيمةَ الكلمة، وخطورةَ الكَلِمة، وتأثيرَ الكلِمة على النفوس البشرية، وأن القلمَ سلاحٌ ذو حدَّين، فإما أن تسقيَ به قراءَك عسلًا مُصفًّى، أو سمًّا زُعافًا، لذلك فأنا لا أكتبُ في شيء لا أُحسِنه؛ حتى لا أكونَ سببًا في ضياعِ مَن تَصلُهم كلماتي ومقالاتي وخواطري، ودومًا أجعل مقولة الحافظ ابنِ حَجَر نَصْبَ عيني: «ومن تكلم في غير فنه أتى بهذه العجائب»، وما أكثرَ أصحابَ العجائب في هذا الزمان، ولعل الكوارثَ والأزماتِ الفظيعةَ التي يغرق فيها العالم؛ سببها المتكلمون في غير فنهم.

يقول علَّامة العربية أبو فِهْر محمود شاكر في مقالاته ج 1 ص 490:

إنما حَمَلتُ أمانةَ هذا القلم لأصدعَ بالحقِّ جِهارًا في غير جَمجَمة ولا إِدهان، ولو عرفتُ أنِّي أَعجِزُ عن حَمل هذه الأمانة بحقِّها لقذفتُ به إلى حيث يُذلُّ العزيز ويُمتَهَن الكريم. وأنا جنديٌّ من جنود هذه العربيَّة، لو عرفتُ أنِّي سوف أحمل سيفًا أو سِلاحًا أمضَى من هذا القلم لكان مكاني اليوم في ساحة الوَغى في فلسطين، ولكني نَذَرتُ على هذا القلم أن لا يكُفَّ عن القِتال في سبيل العرب ما استطعتُ أن أحمله بين أناملي، وما أُتيح لي أن أجد مكانًا أقول فيه الحقَّ وأدعو إليه، لا يَنهاني عن الصَّراحة فيه شيء ممَّا ينهى الناسَ، أو يخدعُهم، أو يغرِّر بهم، أو يغريهم بباطل من باطل هذه الحياة، اهـ.

صديقي القارئ: جُعْلتُ فِداك لا أريد بكلماتي أن أغرّك فترى السّرابَ ماءً، حتّى إذا أتيته لم تجده شيئًا، ولا أريد أن أخدعك فتظنّ بي ظنّا حسنًا وأنا على غير ذلك، ولا أحبّ أن أفتنك بمعسول الكلام لأنال رضاك، بل هذه نبضاتُ قلب، وزفراتُ قلم كتبتها لنفسي، وعرضتها على أصدقائي ومعارفي وأساتذتي على بعض المواقع التّواصلية، وعلى بعض الجرائد ليشاركوني همومي، وسعادتي، وخلجات نفسي واضطراباتي، وذكرياتي النّائمة في أحضان قلبي الأسيف، فأشار عليّ من أثق في علمه وأدبه أن أجمع هذه النّبضات، وهذه الشّذرات بين دفّتي كتاب؛ زاعمًا أنّها تستحق أن تُطبع، وأن تنشر، وأن تكون بين يدي القارئ الذي لم يقرأ لي، ولم يسمع

باسمي من قبل، فوافقتْ إشارتُه موطنًا حسنًا في داخلي.

ثمّ اعلم- بارك الله فيك- أنّ كلماتي هذه لا أزعم أنّني أبدعت فيها أو أفلحت أو أتيت بشيء استعصى على غيري الإتيانُ بمثله، بل هو كلام وصفتُ به حالاتي وانكساراتي وبعض أفراحي على قلّتها، وكما قال إدريس الخوري: لا تفعلُ الكتابة شيئًا أكثرَ ممّا هي تصفُ، إنّها تصفُ الحالات والانكسارات والفظائع، وما دمتُ أنتسبُ إلى الأدب فخير تعريف له ما قاله أحمد أمين: هو التّعبير عن الحياة أو بعضها بعبارة جميلة. وأنا أسأل الله أن يكون لي من هذا الجمال نصيب، وفي الكتاب كما يقول المازني: عيبٌ هو الوضوح فاعرفْه.

وقد عنونت لكلّ نبضة وزفرة بعنوان، ليسهل على القارئ تناولها، ومطالعتها في غير ملل ولا ضجر، ثمّ جعلت التغريدات القصيرة في الأخير مفتوحة بلا عناوين ولا قيود. فإن وفّقت فيما جمعت، فالله هو العَضُد والمعين في كلّ كلمة وكلّ حرف وكلّ فكرة، وإن كان العكسُ؛ فأستغفر الله وأتوب إليه.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أتقدّم بخالص شكري وامتناني وتقديري لشاعرنا الأديب الشّيخ محمد بن إدريس بلبصير، الذي قرأتُ عليه الكتاب كلّه فأشار عليّ بإعادة النّظر في بعض فصوله، وتهذيب بعض حَشْوه وما لا فائدة من إبقائه، وتصحيح بعض عثرات القلم اللّغوية. جزاه الله عنّا الفردوسَ الأعلى بمنّه وكرمه.

النبض الأول

مع الأدب

ما فائدةُ الأدبِ

ما فائدة الأدب إن لم يُخاطب وِجدانَ الإنسان، ويبعثُ في قلبه السَّكينَة والاطمئنان، ويحمله على النّظر إلى الحياة نَظرة تفاؤلية رغمَ بشاعتها، وتقلّب أحوالها. وما فائدته إن لم يعبر عن خَلَجات النّفوس الضّعيفة التي أرهقها الألَم، وأتعبها المسير بين مُنعرجات الدّنيا، ما فائدته إن لم يبشّر بغدٍ أفضل يُلَملمُ أشلاءَ الماضي الأسيف حيثُ الذّل والضّيمُ والعارُ والرّضا بالهوان. ما فائدته إن لم يمسح عن الأرواح اليائسة تلك القَتَامة التي لا تَريم. ما فائدته إن لم يكن مفتاحَ خير وحبّ وجمال، مغلاقَ شرّ وظلم وفساد. ما فائدته إن لم يجعل من الحَبّة قُبّة، ويعبّر عن الحياة بعبارة تأخذ القارئ إلى قصور البلاغة والملكوت وحدائق البيان. ما فائدته إن لم تكن عنده رسالة ومبدأ ومنهج سويّ، ويكون نبراسًا يهتدي بنوره أصحاب القلوب النّقية والفِطَر السّليمة. ما فائدته حين يتحوّلُ إلى مِعْوَل للهدم، ومنبرٍ للشّتم والسّب والهجاء، ما فائدته حين يكرّس للحِقد والسّخرية والاحتقار. ما فائدته حين يكون سرابًا حتّى إذا أتيته لم تجده شيئًا، فتموت بظمَئِك. ما فائدته إن لم تكن لغته سهلة ميسورة لا تحوجك إلى الفزع إلى القواميس عند كلّ لفظة، ما فائدته إن لم يحرّر العُقولَ والطّباعَ من تلك الأوهام والأباطيل والتّقاليد البالية التي ورثتها عن مجتمعات لا ماء فيها ولا خضرة ولا أزهار ولا شجر ولا تغاريد العصافير. ما فائدته إن لم يدفع

عنك قلقَ الاغتراب الكامن في فؤادك الكسير. ما فائدته إن لم يخبرك أنّ الدّنيا ساعة فلتجعلها طاعة. ما فائدته إن لم يحرّك الأشجان الرّاكدة ويثير الغرام نحو بيوتات الله المُقدّسة، ما فائدته إن لم يكن لسانَ صدقٍ في الأوّلين والآخرِين، ما فائدته إن لم يكن النّاطقَ الرّسميَّ للإنسانية المعذّبة على هذه الأرض.

ما فائدتُه إن لم يجعلك تَعشقُ لغتك الأمّ، وتشعرُ في قرارة نفسك أنّها هُويتك، لحمُك ودمك، وفي غيابها ليس لك إلا التّشرّد والتّيه والضّياع.

ما فائدته إن لم يدعُ إلى الإخاء والسّخاء والتّسامح والتّعاون على البرّ والتّقوى، ما فائدته إن لم يشعل فتيلَ المودّة والصّدق والوفاء بين المؤمنين الحالمين بتطبيق شريعة الله.

ما فائدته إن كان همّه لا يتجاوز اجترار الذّكريات الهاربة والبكاء على أطلالها البالية، ونسيان الحاضر والمستقبل.

ما فائدته إن لم يحذّر من مغبّة الكذب والبهتان، والغِيبة والنّميمة والهمز واللّمز وردع كلّ جبان رِعْدِيد لا همّ له سوى ذلك. ما فائدته إن لم يشرح صدورًا ضاقت بها الدّنيا بما رحبت وضاقت بها السّبل، بعيدًا عن النّهج الرّباني القويم.

ما فائدته إن لم يجعلك تُقيم دولة الإسلام في قلبك قبل أن تحلمَ بها فوق أرض واقعك الحزين.

ما فائدته إن لم يكن "مِنحةٌ ربّانية يجودُ بها الله على أرباب القلوب".

اقرأ

لا أذكر آخر مرّة رأيتُ فيها من يحمل كتابًا بين يديه في الأماكن العامّة أو الحافلة أو العيادات، لكنني أذكر جيّدًا أنّ ذلك كان من أكثر من عشر سنوات! قبل أن تظهر هذه الهواتف الذّكية التي تُستعمل بأيادٍ غبيّة في الغالب!، هذه الهواتف التي فرّقت جماعتنا، وأبعدتنا عن أسرنا، وأسرفت في دفعنا عن كتبنا وتواليفنا التي كنّا نعيشُ بين دِفَافها عيْش السّعداء، بل قد جعلت منّا كائنات بلا روح تجلس السّاعات الطّوال عاكفةً على "العبث" كفيلسوف ضائع لا يعرف المغزى من وجوده.

ولعلّ من المفيد أن أسجّل هنا ما كنت قرأته عند بعض المحدَثين، فربّ كلمة مختصرة ينفع الله بها خلائق لا نشعر بوجودهم فيكون لنا الأجر والثّواب:

فإنّك كلّما قرأت فُتحت أمامك آفاق واسعة من المعرفة، والتجارب، والدراية، فكل سطر له معنى، وكل كلمة لها رمز، وما عليك إلا أن تكون قارئًا ذكيًّا يوظف المعلومة، ويجيد تخزين المعرفة في ذاكرة اكتسبت الوعي من المِرَان، وحفظت الفوائد بالمراس، افتح كتابًا نافعًا وكأنّك فتحت مدينة، وطالع ديوانًا مفيدًا وكأنّك طالعتَ قارّة، إنما المهم أن تقرأ، وأوصيك دائمًا أن تقرأ، ولو قبلت نصيحتي لقلت لك: اقرأ!

الكتابة

الكتابة ليست موهبة تولد مع الرّجل والمرأة وانقضى الأمر، فيكتب وتكتب متى شاءَا وشاءت لهما الموهبة، بل الكتابة معاناة تحتاج من مدّعيها صبرًا وممارسة وقراءات مختلفةً في شتى المجالات، إلى أن يستقيم لهم اعوجاجها، وتعنّتها، وتمرّدها، وتسلمهم نفسها عن طيب خاطر بعد جهاد طويل الأمد؛ لذلك نجد الفشلَ من نصيب كثير من أدعياء الكتابة، وإذا قرأت لهم لم تجد ذلك الأدب الذي ترنو إليه الرّوح، وتسعد به النّفس، وتبتسم له الجوارح، بل تجد التّفاهة والسّطحية والسّذاجة تكتنف الكلمات والتّراكيب، والضّعف يستبدّ باللّغة وبلاغة القول، أمّا المضمون فظنّ شرًّا ولا تسأل عن الخبر؛ لذلك لا تستغرب إذا وجدت الكاتب يهرب إلى ما يُسمّى بالأدب المكشوف، ليغطي على أميّته وجهله بتلك الوقاحة التي تسرّ القارئ التّافه، والجمهور المكبوت، فمحمد شكري مثلًا بنى مجده على خبزه الحافي وتُرجمت هذه السيرة النّتنة إلى ثلاثين لغة، واشتهر شهرة لم يشتهر مثلها كبار الأدباء واللّغويين والعلماء في المغرب، وما ذلك إلا لوقاحته وقلّة حيائه، وإذا أردت الحقيقة فهو رجل أميّ جاهل بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى !

كلّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ

كيفَ يمكن للأدباء والشّعراء أن يبدعُوا ويتألّقوا ويأتيهم الإلهام في بِيئة لا ماء فيها ولا شجر. كلّ ما هنالك مستنقعات قذِرة، وبِرَك نتنة، وكائنات بشرية تفوح منها رائحة الفقر والكآبة والتعاسة والشّقاء، كأنّهم طحالبُ الوديان الرّاكدة، انبثقوا من مجتمعات لا تقرأ ولا تحبّ أن تقرأ ويؤذي نفوسَها أن يقرأ النّاس! فإذا قرأتم لشاعر أو كاتب شيئًا ممجوجًا مستقبَحًا لفظًا ومعنًى فلا تلوموه، ولكن لوموا الرّحم التي قذفت به مشوّهًا قبل أن يتمّ تكوينه الطّبيعي، فكلّ إناء بما فيه ينضح. فالشاعر الذي ينظم قصيدة في الصّحراء القاحلة فلا تنتظر منه إلا نباح الكلاب، ونعيق الغِربان، وفحيح الأفاعي، وطنين البعوض، وعواء الذّئاب، ونقيق الضّفادع، وهلمّ شرًّا!. أمّا الشّاعر الذي ينظم القصيدة في رياض خضراء يتفيأ ظلالَ أشجارها الوارفة، ويشرب من نمير مياهها العذبة.. مُمَتّعًا نظره وحواسّه بالطبيعة وهي تنطلق على سجيتها كما أراد لها خالقها، فانتظر منه شدو البلابل، وتغاريد العصافير، وزقزقة العنادل، وفرحة الأيّام، وسرور اللّيالي، وموسيقى الآصال، وبهجة الأرواح، ونَضَارَة النّفوس وهلمّ خيرًا. وفي هذا الصّدد يقول توفيق الحكيم في كتابه "زهرة العُمر ص 144": فتربيةُ

ملَكة العقلِ وحدَها لا تكفي عندَ رجل الأدب والفنّ إن لم تُصاحبها تربية حاسّة البصر، وحاسّة السّمع، وحتّى حاسّة الشّم والذّوق.. يجبُ أن يعلمَ الأديبُ والفنّان أنَّ من واجبه ألا يجهلَ قطّ وجود الجمال الأسمى عند كلّ حاسّة من حواسه، وأنّ هنالكَ عباقرة قد استطاعوا التّعبيرَ عن هذا الجمال، وتمكّنوا من استخلاصه واستصفائه وصبّه في قوالبَ فنيّة رائعة.!

✍ ✍ ✍

لا ماء ولا شجر

كان الشعراء في الجاهلية والإسلام وفي عصور الازدهار الأدبي والفكري لهم أرفعُ الدرجات، وأعلى المناصب، وكانوا محلَّ اهتمام في المجتمع الذي يعيشون فيه؛ لذلك يقول ابن رشيق: كانت القبيلة من العرب إذا نبَغَ فيها شاعرٌ أَتَتِ القبائل فهنَّأَتْها، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعَبْنَ بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان؛ لأنه حمايةٌ لأعراضهم، وذَبٌّ عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم، وكانوا لا يُهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج»؛ "العمدة ج 1 ص: 65".

أما اليومَ فقد أصبح الشاعر يَنبُغُ في بِيئة لا عَلاقةَ لها بالشعر ولا بالأدب، فيموت بحسرته وأسفه! بل هناك شعراءُ كثيرون وضعوا حدًّا لحياتهم التي لا معنى لها وسط أناس لا فرق عندهم بين البُرّ والخُشار؛ اعتقادًا منهم أن الموت أرحمُ من هذا الإهمال المتعمد، وأذكر على سبيل المثال شاعرًا مغربيًّا شَنَق نفسه؛ لأنه لم يَجِدْ من يُقدِّرُ إبداعاته ومواهبَه؛ ولأنه وجد النُّقَّادَ منصرفين عن الأحياء لا يقيمون لهم وزنًا ولا أدنى اهتمام، منغمسين في تبجيل الأموات والذَّهاب في مدحهم وتقييم أعمالهم مذاهبَ شتى، ووجد كذلك إعلامَنا الفاجرَ لا يَحتَفِلُ إلا بالفَسَقةِ والمجرمين من أهل العَفَنِ؛ لذلك ترك رسالةً بعد موته تقطر حسرة والتِياعًا وسخرية، يقول فيها:

أخفقتُ في الشعر والكتابة والرسم، ولم أوفق حتى في حماقاتي الجميلة في حضن الحياة، وأمام كلِّ الإخفاقات التي واجهتني في الحياة سأَقِفُ اليوم قويًّا في وجه الموت.. وداعًا!

✍ ✍ ✍

نصيحة

لكي تكونَ كاتبًا جيّدًا يجب عليك أولًا أن تكون قارئًا أجودَ، تطّلعُ على أساليب الكتّاب المختلفة، فيتكوّن لك رصيد هائل من المفردات، والمصطلحات، والتّعابير الرّائعة. تقرأ كلّ شيء ولا تكتفي بفنّ دون آخر، تقرأ وتنسى، ثمّ تقرأ وتنسى، ثمّ تقرأ وتنسى من أجل تكوين أسلوب خاصّ بك، مبتعدًا عن تقليد الأدباء والانصهار في بوتقة المفكّرين والعلماء. وبعد مرور الأيّام وكرّ اللّيالي تجد نفسكَ وصلت لدرجة من الإنشاء والتّعبير والنّضج الفكري ما لا يخطر لك على بال. أمّا من يسير على غير هذا المنوال فلن يكونَ إلّا كاتبًا ركيكَ الأسلوب، محدودَ الثّقافة والأفكار، لن يستطيع أن يوصل رسالته "إن كانت له رسالة" لقرّائه، وتكون كلماته مجرّد حبر على ورق. فهذه نصيحة من شابّ ثلاثيني مازال يعالج خللَ قلمه، وركاكةَ أسلوبه، وضَعف أفكاره، وذلك عن طريق القراءة المستمرة، لعلّه يصل يومًا إلى المستوى المنشود، وينتظم في سلك الذين خلّدتهم أفكارهم النّاضجة، وتعابيرهم التي تنساب في أعماق القارئ كالماء السّلسبيل في حمأة القيظ!

اقرأ قبل أن تكتب !

قالَ أحدُهم ما معناه: الكتابة لا تحتاج منك كثرة القراءة لتكون مبدعًا !

وهذا كلامُ رجل جاهل لا يعرفُ شيئًا عن القراءة ولا عن الكتابة، تكلّم في غير فنّه فأتى بهذه الكارثة، بل الكتابة والقراءة توأمان لا يفترقان عند من يعرف معنى كلمة "الإبداع"، ولا أعرفُ كاتبًا ولا مفكّرًا ولا أديبًا سطع نجمه في سماء الكتابة كان في خصام مع القراءة، بل كانت القراءة هي الأب الرّوحي لأقلامهم، ولو جئت أسرد أسماء المبدعين الذين كان الكتاب رفيقهم الدّائم لطال بي المقام؛ لذلك سأكتفي بمثال واحد وهو توفيق الحكيم فقد ذَكَر في كتابه "زهرة العمر ص 99" أنّه قرأ ركامًا من الموسوعات العلمية والأدبية العربية والغربية بحثًا عن الأسلوب، ثمّ قال: لقد غرقتُ في آدابِ الأمم كلّها وفلسفاتها وفنونها، لم أكن أسمح لنفسي بأن أجهلَ فرعًا من فروع المعرفة، لأنّي كنتُ أعتقدُ أنَّ الأديبَ في عصرنا الحاضر يجبُ أن يكون "موسوعيًّا"؛ لذلك بذلتُ جهدي في أن أحيطَ بأبرز ما أنتجتْ العبقريةُ الإنسانية !

قال ربيع: فانظر أخي القارئ إلى قوله "يجبُ أن يكون موسوعيًّا".. وقارنه بالضَّلال بن سَبَهْلَلِ الذي صدّرتُ حديثي بهُرائه !

قراءات

للقراءة والمطالعة مُتعٌ كثيرة، مختلفَة ألوانُها، ولكلّ قارئ جادّ طريقتُه في إدراكِ الـمُتعةِ التي يصبُو إليها، فهناكَ من يقرأ الكتابَ من ألِفِه إلى يائه ولا تحصلُ له لذّته إلَّا بذلك، وهناك من يكتفي بقراءة المقدّمة وفهارس الكتاب لاختيار ما يروقه من موضوعات، وهناك من يتنقّل في حديقة مكتبته كنحلة نشيطةٍ في صباح مشرق الأديم عنبريّ النّسيم، يأخذُ حظّه من كلّ كتاب تميل إليه نفسه، ويظلّ لمتعته عاكفًا لا يبغي عنها حِوَلًا، وهناك من يقرأ عدّة كتب ويطالع كثيرًا من المقالات في موضوع يهمّه أو مسألة تخصّه، كطريقة الباحثين والدّارسين. وهذه الطّريقة الأخيرة هي التي تستهويني وتصادف حبًّا في أعماقي، إذ بها أجدُ متعتي كاملة حدّ الإشباع، مع إرواء غليل جهلي وأمّيتي، وقد حُبّب إليّ ذلك مذ كنت يافعًا بحيث لا أنفكّ عن المسألة التي أنا بصددها حتّى أقتلها بحثًا، ولا أرضى من العلم والأدب بالقشور. وهذه الطّريقة في القراءة إضافة إلى المتعة تجعل الفائدة ترسخ في الذّهنِ، وتأخذ مكانها في النّفس كسنديانة متقدّمة في السّن يصعب اجتثاثها من الأرض. والقراءةُ السّطحية أكرهها، وأنا ضد من يجعل القراءةَ هوايةً، بل هي شيء ضروري في حياة الإنسان كالأكل والشّرب والماء والهواء، ولكنّ أكثرَ النّاس لا يعلمون !

القراءة تدعوك إلى القراءة

القِراءة تحملُكَ على البحث عن كتب أخرى للمؤلِّف الذي انتهيتَ من مطالعة كتابِه، بشرط أن يكونَ هذا الكتابُ قد صادفَ معناه ولفظُه في نفسك محلًّا كريمًا، ووافق المُؤلّفُ هوى في قلبك، هذا القلبُ الشّغوفُ الباحثُ عن المُتعة والفائدة بين رُكام الكتب !

وهذا ما وقعَ لي قبلَ عشر سنوات ونيّف حين اكتشفتُ شيخَ الإسلام ابن تيمية- عليه رحمة الله- وذلك عن طريقِ كتابه النّافع "اقتضاء الصّراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم"، فحين انتهيتُ من قراءته وجدتني أبحث عن كتب هذا العظيم ما وسعني البحثُ، فوجدت كتاب الإيمان، ومنهاج السنّة النّبوية، والجواب الصّحيح لمن بدّل دين المسيح، وغيرها كثير ليسَ من الحكمة الاسترسال في ذِكرها في هذا الموضع، لكنّني يوم وجدت مجموعة فتاواه في أكثر من ثلاثين مجلّدٍ، اقتنيتها، وأغلقت عليّ باب الدّنيا بعدها كما يقول عبد الله الهدلق، وفتحت باب المكتبة، وقلت: هذا مغتسل بارد وشراب.!

تخبّط ارتِجالي

كثيرٌ من طلبة العلم فضلًا عن غيرهم يعيشون ارتباكًا كبيرًا، وفوضى عارمة إزاءَ الكتب التي يجدونها في المكتبات والمعارض، فتجد الواحدَ منهم لا همّ له إلَّا تحصيل الكتاب كيفما كان نوعه ورسمه، يسيلُ لعابه من أجل تلك الزّخرفات والنّقوشات المذهّبة على أغلفة الكتاب ولا يلقي بالًا لمضمونه ومؤّلفه وطبعته وتحقيقه، وقيمة مادّته، ومدى احتياجه إليه، بل تجده لا يراعي التّدرج في اقتناء المصنّفات، التي تتلاءم مع مستواه العلمي والأدبي.

وقد سألني طالبُ علم مبتدئ قبل أيّام عن أفضل طبعات لهذه الكتب الضّخمة "المُغني لابن قُدامة"و "تفسير الطّبري"، و"فتح الباري لابن حجَر" و"شرح السّنة للبَغَوي".فقلتُ له: هل تسمح لي بسؤال قبلَ الإجابة؟ فقال: تفضّل. فقلت: هل قرأتَ تفسير السّعدي؟، قال: لا.قلت: هل قرأت تيسير العلّام شرح عُمدة الأحكام؟ قال: لا. قلتُ: هل قرأت شرح الأربعين النّووية، وجامع العلوم والحِكم؟ قال: لا. فقلت: وما حاجتك إلى هذه الكتب التي قد لا تفهم مصطلحات أصحابها، إلا بعد سنين طويلة من طلب العلم، بل هذه الكتب لم تؤلّف إلّا للمنتهين في طلب العلم وليس

للمبتدئين. فقال: سمعتُ شيخًا ينصح بها ويؤكّد على ذلك.فقلت هو: لم ينصح بها إلّا فئة معيّنة متقدّمة في طلب العلم، فإن كان العكس، فهو كرجل ينصح بإعطاء شرائح اللّحم لطفل رضيع لم يتجاوز الشّهر الأوّل من عمره. قال: صدقت بارك الله فيك.ثمّ انصرف بعدما سمّيت له بعض الكتب التي تليق بمستواه !

العَنْدكيُّون

ماذا تقرأ هذه الأيّام يا صديقي "ربيع"، يسألني أحدُهم؟

فأجيبه: انتهيت من قراءة "موسم الهجرة إلى الشمال" للطّيب صالح، ورواية لشاب مغربي عنوانها "جحور وأوكار"، وكتاب "البلاغة الميسّرة"، ومازلت مع رواية "الآن.. هنا" لمنيف..

يفتح السّائل فاه من العجب، "منيييييف"!! ألا تعلم أنّه شيوعي وله أفكار مسمومة تناقض دينَ الإسلام؟

نعم، أعلم يا صديقي عنه أكثر من ذلك، لكن تأكّد أنّني عندما أقرأ له ولغيره من أصحاب الأفكار الضّالة لا يخطر في بالي، ولا أحدّث نفسي أبدًا أنّني سأتلقى عنهم دروسًا في الشّريعة، أو محاضرات في الأخلاق، أنا أقرأ لغتهم العربية المميزة التي يكتبون بها، وأستمتع بأساليبهم الرّائقة التي تجعل ذائقتي الأدبية تتمايل طربًا، وبحمد الله لست صبيًّا حتّى يؤثّر فيّ عبد الرحمن منيف أو طه حسين أو توفيق الحكيم أو يوسف السّباعي أو غيرهم ممّن يعلم انحرافهم كلّ من له اهتمام بهذا المجال، ولا تنسَ يا صديقي أنّني أقرأ أيضًا الأدب العالمي، لكتّاب وروائيين ملاحدة، وكفرة لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.!

يسألني بحماس:

إذًا أنتَ تنصحني بقراءة كلّ شيء له علاقة بالأدب والفكر؟

طبعًا أنصحك، لكن بشرط أن تكون ثقافتك الدّينية لابأس بها، تمكّنك من معرفة الغثّ والسّمين، البرّ والخشار، الخاثر والزّباد.. باختصار: نحن لسنا من أصحاب الإرهاب الفكري "العَنْدَكِيُّون".. ولكن لكل مقام مقال، ولكل حادث حديث، فكما لا يمكنك أن تعطي للرّضيع قطعة لحم، فلا يمكنك أن تعطي لشباب أغرار كتابًا في المنطق أو في الفلسفة وهم لا يعرفون أركان الإسلام الخمسة بالأدلة !

حكاية

لا يَخلو مجلسُ شيخِنا الأديب محمد بن إدريس بلبصير من فائدة!

كان يَستقبلنا في بيته الهادئ الجميل مساء كلِّ سبت لقراءة كتاب من كتب العلم أو الأدب، يشرح لنا ما غمض منها، وما أشكَل على عقولنا هذه المحدودة، التي لم يكن حظُّها من العلوم قد بلغ مبلغًا يسرُّ قلوبنا وتطمئنُّ إليه نفوسنا، فكنت أقرأ عليه ما شاء الله لي أن أقرأ، والإخوة الأساتذة معنا يُصغون كأنَّ على رؤوسهم الطَّير، مُنتظرين بشغف تحليلاته ونُكَتَه العلميةَ التي كان يجود بها علينا بين الفينة والأخرى، وأكثر ما كان يروقُ لي في تلك المجالس الرَّائعة حكاياتُ شيخنا عن نفسه إبَّان الطَّلب والتحصيل، أيام الدراسة الجامعية؛ حيثُ الجِدُّ والاجتهاد والعلماء الرَّاسخون في شتَّى الفنون، كنتُ أعيشُ خارجَ هذا الزَّمان المنكوب لأحيا في أحضان تلك اللحظات المشرقة التي كان يَسردها على مسامعنا والتي كأنَّها ضرب من ضروب الخيال أو سيرة من سير السَّلَف الصالحين في تقدير عقولنا التي أنهكتها هذه البِيئة الفاسدة، وهذا المجتمعُ الذي كلُّ شيء فيه يدعوك إلى الكسل والخمول ومعصية الله، وهذه واحدة من تلك الحكايا: كانَ في يوم من أيام الطلب جالسًا في بيته متأمِّلًا متفكِّرًا، لا يجد من يقرأ له

شيئًا من هذه الكتب المتراكمة هنا وهناك في حجرته الضيِّقة، فإذا طرْق شديد على الباب يَنتشله من شروده وتفكيره، فيستجيب لفتحه فزعًا مذعورًا ليجد بعض أصدقائه الأعزَّاء قد جاؤوا لزيارته وإنفاق الليل في صحبته، فتهلَّلت أساريره وذهب رَوعه، واستجاب قلبه لسعادة غامرة لم تكن له في الحسبان، وهو شابٌّ يحبُّ الأنسَ ومجالس السَّمرِ والسَّهر المُعطَّر بالعلم النافع ومناقشته، والأدب الجميل الذي يدعو إلى الدعابة التي لا يشوبها أذًى ولا قذًى، والتي تخرجهم إلى الأنس من العبوس، وإلى الاسترسال من القُطوب!

هبطَ المساءُ سريعًا وهم متحلِّقون حول مائدة شاي مُتواضِعة يتجاذبون أطراف هذه الأحاديث الأدبية التي تشغلهم وتستبدُّ بعقولهم، فبَيْنَا هم كذلك إذ انصرفَ عنهم شيخنا مستأذنًا، فخرجَ وأخرجَ ما معه من دراهم معدودات عن طيب نفس وخفَّة روح يلتمسُ لهم بعض الأكل للعشاء، وهو من أهل القِرَى والكرم كما عرفناه، وإن لم يكن من ذوي اليَسَار والتّرف، حتَّى إذا اقتربَ من بعض هذه الحوانيت المنتشرة هنا وهناك بمدينة فاس، رآه صديق له يتاجر في الكتب، فناداه وسلَّم عليه، ثمَّ أخبره أنَّ له كتابًا جديدًا لا عهد لعينيه برؤية مثله، فقال الشَّيخ متعجِّبًا: وما ذاك؟ فقال: «في ظلال القرآن»؛ لسيد قطب في طبعة منقَّحة، فطرب لهذه المفاجأة واستسلم لفرح كاد يخرجه من إهابه انتشاءً، ونسيَ ما كان وما سيكون من أمر ضيوفه

الذين ينتظرون قدومه ومعه ما يشبع بطونهم هذه الجائعة، ويُريح نفوسهم هذه المتعبة بأيام التحصيل والطلب، فدفع للكُتبيِّ كلَّ ما كان معه من مال، وأخذ الكتاب ورجع إلى بيته يتعثَّر في سعادته، ثمَّ أقبل على ضيفانه يداعبهم ويلتمس منهم العذر، وأن يتدبَّروا أمرَ عشائهم، فَفَقْدُ الكتاب كفَقْد الصَّواب، أما العشاء فلا ضير فهناك الخبز الحافي، والماء البارد الزُّلال، نأكل هنيئًا ونشرب مريئًا في ظلِّ "ظلال القرآن"!

أوراق من الماضي

حينَ كنت أتاجرُ في الكتب قبلَ سنوات، كانت الكتب الأكثر مبيعًا، كتبَ الطَّبخ، وكتب تفسير الأحلام، ثمَّ كتاب «لا تحزن» للقرني، وكتاب «دع القلق وابدأ الحياة» للأمريكي ديل كارنيجي، و»تحفة العروس» للإستنبولي، وكتيِّبات تعلم اللغات الأجنبية في أقلِّ من خمسة أيام بدون معلِّم، أما سوى ذلك من الكتب العلمية النَّفيسة التي تسمو بالإنسان وتجعله ذا شأن وخَطَر، فكانت تجلس في ضيافتي الأَيَّام والشُّهور لا تملُّ من صحبتي ولا أسخط على طول مُكثها، ومن هذه النَّافذة التي عنَّ لي فتحها اليوم نستطيع أن نعرفَ الحالة النَّفسية التي يتمتَّع بها هذا المواطن العربي المسكين، الذي يحلم كثيرًا، ويتناسل أكثر، يأكل لمَّا ويُوسع ذَمًّا، يبحث عن سعادته بعد ذلك بين دَفّتَي هذه الكتب ذات الأغلفة المزركشة الأنيقة التي يريدها أن تدفعَ عن حياته الحزن والقلق والاضطراب دون أن ينصرفَ لتطبيق أهمِّ ما فيها، بل ما إن يغلقها حتى ينسى ما تحمله بين دفافها، مُنطلقًا إلى لهْوه وعبثه وبطالته كما اعتاد أو اعتادت نفسه الخاملة أن تفعل!

أمَّا الذين كانوا يسألون عن الكتب النَّطيحة والمُتردِّية وما أكل السَّبع، فحدِّث ولا حرج، وكثيرًا ما كانوا يسألونني عن كتاب «الرَّحمة في الطِّب

والحكمة» المنسوب زورًا وبُهتانًا للإمام السيوطي، وكتاب «الروض العاطر ونزهة الخاطر»، وغير ذلك من الكتب التي أستحي من ذكر أسمائها وأسماء أصحابها، وما زلتُ أذكر بعض النَّاس الذين لم يظفروا عندي بما جاؤوا من أجله، وكيف ورِمَت أنوفهم وانتفخت أوداجهم، وانطلقت ألسنهم بهمهمات، أغلب الظَّنِّ أنها سبٌّ وشتم وما إلى ذلك من أخلاق السُّفهاء، وكأنَّني حرمتهم من أكبر متعهم في الحياة الدُّنيا!

لذلك أقول: إنَّ المتاجرة في الكتب قد علَّمتني الكثير وأنا في طور التكوين وسنِّ العشرين، وما كنت أضيق به في ذلك الحين وأتبرَّم به، فها هو قد أصبح من ذكرياتي الخالدة، التي أتمنى في قرارة نفسي لو تعود وأعود كُتبيًّا كما كنتُ، بدلَ هذه التكنولوجيا التي غزت بيوتنا وملكت علينا السَّمع والبصر والفؤاد، وزهَّدت كثيرًا من النَّاس في الكُتب وجعلتهم ينظرون إليها نظرة الكاشح الذي يُناصبك العداوة ويضمر لك الشرَّ!

كُنْ فصيحًا!

قبلَ سنواتٍ كنتُ أقرأ على أستاذنا الشَّاعر الأديب محمد بن إدريس بلبصير كتابًا في الفلسفة، فعثر بي اللِّسانُ بِضْعَ عثرات، فسقطت في بعض الأخطاء الفادحة، فانتشلني بقوله، بل بصفعته: ويْحَكَ يا فتى كُنْ فصيحًا! فقلتُ له والحياءُ يملأ وجنتيَّ خجلًا: حاضر يا أستاذي، سأكون بحول الله فصيحًا ولو بجدع الأنفِ، وفُقدان البصر! فذهبتُ من ذلك الحين أقرأ ركامًا من الكتب الأدبية واللُّغوية والنَّحوية بعزيمة كالفولاذ، وصفعتُه تَرِنُّ في أذنيَّ صباحَ مساء لا تبرحني: كنْ فصيحًا، كن فصيحًا! مُستحضرًا تلك القصّة اللّطيفة التي ذكرها أبو هلال العسكري في كتيّبه الحثّ على طلب العلم قال: حُكي لي عن بعضِ المشايخ أنَّه قال: رأيتُ في بعضِ قرى النبطِ فتى فصيحَ اللَّهجة، حسنَ البيان، فسألته عن سبب فصاحته مع لُكْنَةِ أهلِ جِلدته، فقالَ: كنت أعْمِدُ في كل يوم إلى خمسين ورقة من كتب الجاحظ، فأرفعُ بها صوتي في قراءتها، فما مرَّ لي إلا زمانٌ قصير حتى صِرتُ إلى ما ترى!

الحوارات النّافعة

من هواياتي المُفضّلة التي أمارسها باستمرار في عالم القراءة؛ تلك الحواراتُ التي تجريها المجلّات الأدبية والعلمية والثقافية مع بعض المبدعين من الكتّاب والأدباء والعلماء والشّعراء، ففيها تجارب القوم التي تشحذ الهِمَم وتدفعُ السّالكَ إلى المثابرة في سبيل ما يَطلبه من علم وأدب، وفيها يَذكر المُبدعون المراحلَ التي مرّوا بها والمعاناة التي كابدوها، والمفاوز التي قطعوها وهم يشقّون طريقهم نحو الخلود. لسان حالهم: إيّاك أن ترضى من الغَنيمة بالإيّاب..!

ومطالعة هذه الحوارات تشبه كثيرًا السّيرَ الذاتيةَ التي أخبرتُ في غير هذا الموضع أنّني من عشّاقها، وكذلك تشبه قراءة تراجم الفحول من عباقرة هذه الأمة وأساطينها المسطّرة في بطون الكتب، وبين ثنايا المجلّدات. ولن أكون مبالغًا إذا قلتُ إنّ الكثير من هذه الحوارات كتلك الحكايات التي قال عنها الجُنيدُ: الحكايات جُند من جنود الله عزّ وجل بها يقوى إيمانك. فقيل له: هل لهذا من شاهد؟ قال: قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ "هود:120"..!

وآخر حوار طالعتُه كان للرّوائي محمد جبريل في مجلة العربي، وقد خرجتُ منه بعدّة فوائد لعلّ أروعها حين قال: المبدع الحقيقيّ ينظرُ إلى قيمة نفسه في داخله، ولا يتسوّل الإعجابَ في أعين الآخرين. وقوله: ورأيي أنّ الجوائز لا تصنعُ مبدِعًا، قد يحصل على المقابل الماديّ الضخم، لكنه لا يحصل على احترام من رشاهم بالهدايا، وتذلّلَ في هواتفِهم، وألحّت زياراته الشخصية، وبطاقات الأصدقاء، بل إنه لا يحصل على احترامه لنفسِه، فهو أعرفُ الجميع بسرّ الطبخة!

هذا وقد تجمّع لديّ كمّ هائل من هذه الحوارات في خزانتي، فلعلّي أنشط لجمع أروعها بين دفّتي كتاب منسّقة مرتّبة. أسأل الله التوفيق والسّداد.

تعليقاتي وهوامشي

من أجمل متعي حينَ أكون في أحضان كتاب، تلك التّعليقات التي أقومُ بتسجيلها في هوامش الكتب بقلم الرّصاص، أشعر وكأنّني طالبُ علم فعلًا، أُدرك ما أقرأ وأستوعبه وأناقش وأحلّل وأردّ وأخطّئ وأغضب وأسخر وأستهزئ، وعندما أعيدُ قراءة بعض الكتب والتّواليف التي كنت طالعتها وأنا في بداية العشرين من عمري، أبتسم من بعض تعليقاتي على كبار الأئمة الفحول والأدباء العمالقة، لكن لا أنكر أنّني كنتُ مؤدّبًا في تعليقاتي عليهم، وكنت غير مقلّد لأحد معتقدًا أنّ العِصمةَ قد دُفنت مع سيّد ولد آدم عليه الصّلاة والسّلام، ومذ كنت يافعًا تعلّمت أنّ الحقَّ لا يُعرف بالرّجال ولا بالنّساء !

جنون الكتابة

عندما تلحّ عليّ عقلي فكرة من الأفكار ويتشرّبها قلبي وجوارحي أجلسُ إلى مكتبي بعدما أحْكِمُ إغلاقَ باب الغُرفة حتّى لا أسمع صوت إنسان مزعج، أو بكاء طفل، أو صراخ امرأة، بل أقوم بإقفال النّافذة التي تطلّ على الشّارع الذي يعجّ برنين السّيارات والدّراجات. فلا أكره شيئًا في الحياة ساعتئذٍ كما أكره هذه الأصوات التي تحول بيني وبين وجداني وإلهامي، لأنّني أكون خارجَ هذا العالم فاقدًا حاسّة الزمان والمكان وأنا في حضرة هذا المخاض العسير الذي يتملّكني ويجعلني كصبيّ يتيم ينتظر لُعبة من اللّعب بقلب ينبض بالحرمان والحاجة. ومن عادتي حين أكتب أنّني لا أتصرّفُ فيما يجود به الخاطر ولا أحدّثُ نفسي بتغيير شيء منه معتقدًا أنّه ليس من حقّي ذلك، وإلّا ستصبح الكتابة صناعة وليست موهبة! فأكتبُ ما شاء الله لي أن أكتبَ حتّى إذا انتهيتُ من ذلك، أخذت في القراءة مثنى وثلاث ورباع، ثمّ إذا وجدتني راضيًا عمّا كتبت أخذت كأس الشّاي الملازم لمكتبي على الدّوام لأحتسي حُسْوة منه بانتشاء غريب، وكأنّني أكتَشفُ مذاقَه لأوّل مرّة في حياتي !

وكما قال الكاتب الكبير عبد الكريم غلّاب في سيرته الذّاتية "الشّيخوخة الظّالمة": قد أكون من الذين يؤمنون بالوحي ينزل على الكاتب فيملي عليه قصيدة أو قصة أو فصلًا من رواية. وما الوحي بدائم، فقد يتغيب حتى لأظن أنه قد هجرني.

تفاؤل

جلستُ إلى نفسي هذه الأيّام أحادثها وتحادثني في لون من ألوان الكتابة النّثرية، وصارحتها أنّني بدأتُ أميلُ إلى التّفاؤل والأمل والحبّ والخير والجمال أكثر من أيّ وقت مضى، وإنّي عازم على ترك الحزن والألم والكآبة التي خلّفتها في أعماقي كتب بعض الرّومانسيين الحالمين العائشين في دنيا الخيال، فقلمي ينبغي أن يكون مفتاحَ خير مِغلاقَ شرّ يلوّن الحياة بألوان الطّيف مهما كانت قتامتها، ومهما كان حالكًا ظلامُها، لا أريد لهذا القلم أن يظلّ صعلوكًا ابنَ جارية يدفعه الهمّ وتساوره الحيرة ويضطرب لأتفه الأسباب، سنوات عمري لا تكلّ ولا تملّ وأيامي لا تريد أن تستريح! أليس من الخير أن أترك أثرًا جميلًا بعد موتي يفتح شهية الإقبال على الحياة والجدّ والاجتهاد لأجيال تبحث عن آثارنا ما وسعها البحث، وتقرأ حروفنا بشغف وحبّ ما وسعتهم القراءة والحب والشّغف!، باختصار أريد يا نفسي أن أكون طفلًا في الكتابة، وكأنّ كلّ شيء على ما يرام! فانظري ماذا ترين؟!

فقالت لي بعدما أشاحت عنّي بوجهها نحو الأفق المزدان بقمر وضّاء، لا أصدّقك؛ فكلّ يوم أنت في شأن ولا تستقرّ على حال، ويا ليتك تكون كما ذكرت ويكون قلمك كما وصفتُ!

كلامُ ربّي

قال لي: ما هو أحبّ كتابٍ إلى قلبك، والذي كان له أبلغ الأثر في حياتك؟

فقلتُ: إنّ أحبّ كتاب إلى قلبي وروحي وجوارحي هو كتاب الله تعالى؛ بدليل أنّني حصّلت من أجل فهمه واستيعابه؛ أكثر من عشرينَ تفسيرًا، للقُدامى والمحدَثين، ومازلتُ أبحث عن المزيد. بل صدّقني إن قلتُ لك: إنّ الغالبَ على مكتبتي علومُ القرآن والسّنة المُشرّفة. ولا أعرف كتابًا من كتب البشر قد جعلني أهتمّ به كاهتمامي بهذا الكتاب الخالد الذي فيه ذِكرنا وذكرياتنا ومآلنا وسعادتنا.. وهو دستورنا الذي يجب أن نعود إليه؛ ليعود إلينا ذلك المجد الهارب، وما سوى ذلك فالذّل والهوان والخذلان والهزائم وانقطاع القطر من السّماء كما هو حالنا اليوم. والله المستعان!

طقوس الكتابة

حينَ يأتي المساءُ تغلبني غريزةُ الكِتابة على نفسي، فأجدني موزِّعًا نَظَراتي على أطفالي وزوجي وأمي وكتبي، ولا أكاد أستقرُّ في غرفة من الغرف، وكأنَّ شيئًا ضائعًا لي بين تقاسيم هذه الوجوه، أو زوايا هذه الغُرف. لا يهدأ لي بال ولا يقرُّ لي قرار حتَّى أنتهي إلى خاطرةٍ تنغُل دودتُها في أعماقي، في نفسي، وفي كلِّ خليَّة من خلاياي، فإذا سجَّلتها ورضيتُ عنها بعض الرِّضا، أبتسمُ بعمق وكأنَّني جئتُ شيئًا لم تستطع الأوائلُ والأواخرُ الإتيانَ بمثله، وقد أُقبِّل أطفالي من شدَّة فرحي بهذا الإنجاز وأنقِدُهم بعضَ الدُّريهماتِ سرورًا وفرحًا!

قرية أهل سابك

تقول ابنتي : إنَّ انطلاقَك واحدًا... إلى الرّوع يومًا تاركي لا أباليا

هذا البيت لمالك بن الرّيب وهو من شواهد النّحاة، وعندي معه ذكريات جميلة، حين كنت أذهب كلّ يوم جمعة وأحد؛ لدراسة الألفية في قرية مجاورة على شيخ متقنٍ لها، نجلس تحت كرمة أو شجرة زيتون، نقتعدُ أحجارًا ملساءَ أو جدوعَ أشجار طاعنة في السّنّ.فأعود بعد ذلك وأنا أردّد ما علق في ذهني، ومنها هذا البيت الجميل، وكنت أتخيّل الصّبية وقد تعلّقت بأبيها الذي امتشقَ سيفه واعتمر قبّعته وركبَ فرسه وقال بلسان حاله: أزف التّرحل يا ابنتي، اعتني بأمّك.فتتوسّل إليه: أرجوك يا أبتِ إنّ ذهابك إلى ساحة الوغى لمقارعة الأعداء قد يجعلني يتيمة، وقلبي الصغير لا يحتمل، وقد ألفتُ أن أفتح عينيّ على وجهك المُشرق كلّ صباح.وهكذا أظلّ أتخيّل هذا المشهد وأنا عاطفي جدًّا لحدّ الإسراف، بل قد أبكي إذا استرسلت في تخيّل مثل هذه المشاهد !

يااااااه في قرية "أهل سَابك"،كانت لنا أيّاااااام !

تأمُّل ! !

قالتْ لي: ويحكَ يا ربيع! ما عُدتَ تبوح كسابق عهدك حين يهبط اللّيل ويكفّ الضّجيج وتذهب الحياة من حولك في سبات عميق، وقد ألِفنا حرفك، وواقعيتك، وتبسّمك في وجه قارئك من بين الكلمات، رغم تجهم الأيّام التي تستبدّ بك مآسيها، فهل أنت بخير يا صديقي؟ !

فنظرتُ إليها بامتنان وابتسامة خجلى انفلتت من بين شفتيّ اليابستين ثمّ قلت بحماس:

جُعلتُ فِداك سيدتي الفاضلة، فحين تتراكم هموم الكتابة على خاطري، وتضيقُ بي الأحوال، وتكثر الكتب الجديدة في بيتي ألوذ بالصّمت والتّأمل والتّركيز على المقروء الذي بين يدي، وأقلب ظهر المجنّ للخاطرات والهواجس والأفكار، لا أسجّلها، ولا أحدّث نفسي بتسجيلها، إلّا لضرورة ليس لقلمي منها بدّ، فأنا قارئ أوّلًا وأخيرًا، والكتابة لا تستهويني كما تستهويني المطالعة في كتبٍ ترفع عنّي الجهل وتجعلني أعيشُ خارج هذا الزّمن الذي كُتب عليّ رغم أنفي العيش في أحضانه. وهذا شيء ليسَ وليدَ هذه الايّام التي افتقدتِ فيها حرفي، بل مذ

عقلت وأنا أقرأ كثيرًا، وأكتب قليلًا قليلًا. وصدّقيني فالقراءة هي التّوأم الوسيم للكتابة، ومستحيل الفصل بينهما في عالمي هذا الضّيق، وحين أتوقّف عن القراءة، سأشيّع قلمي إلى مثواه الأخير. وكما قال أحمد بوزفور: يبدو أنّني لستُ كاتبًا كما أظنّ ويظنُّ قُرّائي، أنا مجرّد قارئ يتسلّى بالكتابة!. وشكرًا لاهتمامك الذي لا أستحقّه!

✍ ✍ ✍

غُروري

أعترفُ لكم أنّني مغرور جدًا في شيء واحد. في أنّني أكره أن أنقل كلامًا لغيري من كبار الأدباء وأستر اسمه كما لو كان عورة، وأضيف مكانه اسمي. وأقول للأديب الذي يعجبني كلامه ويطربني: من أنتَ حتّى آخذ كلامك وأنسبه لنفسي، فكن الجاحظ، أو كن بديعَ الزّمان، أو كن الحريريَّ، أو طه حسين أو الرّافعي، فو الله لن أسرق شيئًا هو لكم، فأنا اسمي ربيع السملالي ونفسي تعاف أن ترتدي معطفًا أو سراويلَ سبقَ لغيري أن ارتداها؛ لذلك أنقل الكلام كما هو بصفحته وجزئه وحتّى اسم مطبعته..ولا فخر !

وهكذا . . !

حين أعود لبعض كتاباتي القديمة التي كتبتها في العشرينيات من عمري أجدُ الفرقَ شاسعًا جدًّا، في الأفكار مثلًا كانت تغلب عليّ الحماسة والسّذاجة، وفي اللّغة كنتُ لا أدري ولا أدري أنّني لا أدري.. أمّا في الأسلوب فقد كان يغلب عليّ التّقليد ومحاكاة الكبار كالمنفلوطي وجُبران، بطريقة وعظية مباشرة لا قيمة لها، أسترها الآن سترَ العورة، وأخبّئها كما لو كانت وثنًا يجبُ طمسه. ولا أدري إن أطال الله في عمري كيف سأنظرُ إلى كتاباتي وأنا في الثلاثينيات بعد سنّ الأربعين، هذه الكتابات التي أذيعها "الآن" بين القرّاء والمثقّفين والأساتذة والدّكاترة غير هيّاب ولا وجِل. وفي كلّ الأحوال أقول: ويلٌ للكاتب من النّاقد الذي يسكنه !

لصُوص النّصوص

من نِعَم الله عليَّ أنّني رغم قراءاتي الكثيرة، وعثوري على أطيب الكلِم وأعمقه وأروعه في بطون المؤلّفات.هذه المؤلّفات بعضها مشهور، وأغلبها خامل، رغم ذلك لا أحدّث نفسي ولا تحدّثني نفسي بأخذ كلام غيري ونسبته إلى قلمي، تشبّعًا بما لم أعْطَ.هذا فعل قبيح أعافُه وأنظر باستخفاف واحتقار إلى من يفعله، ولا أعجب في هذه الفضاءات التّواصلية كما أعجب من أناسٍ يسرقون كلامك وأنت على قيد الاتّصال بهم فينسبونه إلى أقلامهم الرّكيكة، شاكرين ومبالغين في المدح لمن يقول لهم في التّعليقات: كلام جميل، سلمت يمناك، ما شاء الله كلام ولا أروع، أحسنت والله يا صديقي، ننتظر منك المزيد والجديد. إلى آخر هذه العبارات التي تنسي ضِعاف النّفوس أنفسهم، فتحملهم على الاجتهاد في السّرقة أكثر وأكثر !

مع الكتاب

حينَ تنهي كتابًا من مئاتِ الصّفحاتِ تشعرُ بلذةٍ ممزوجة بالفخر، وتحسّ في قرارة نفسك أنّك أنجزتَ شيئًا ذا بال في زمن قلّ من يفعلُ ذلك، وتزداد إعجابًا بهذه النّعمة التي رزقك الله إيّاها عندما تكون هذه عادتك وهذا ديدنك، فتصير قراءة الكتب الصّغيرة والمقالات سهلة ميسورة كما لو أنّكَ تحتسي "فنجانًا" من القهوة، أو كوبًا من الشّاي، ومن شبَّ على شيء شاب عليه، والعلم بالتّعلّم والحِلْم بالتّحلّم، ولكم أن تسألوا أصدقاءَ الكتب ومجانين القراءة عن معشوقتهم "المطالعة"، فلا يهدأ لهم بال ولا يقرّ لهم قرار إلّا بين دِفافِ الكتب والمصنّفات، وهناك من العلماء من مات وهو يقرأ أو يكتب ذكرهم الزِرِكْلِي في أعلامه، وقد أفردتُ لذلك فصلًا في "كتابي" الذي أشتغل عليه، أسأل الله أن ييسّرَ لي إتمامه !

يا طُلّابَ العلمِ

يا طلَّابَ العلم والأدب، دُونَكُم نصيحةَ شابّ ثلاثيني عاشَ أجملَ أيّامه في أحضان الكتب، نصيحة لا يريدُ من ورائِها جزاءً ولا شكورًا:

ادفعوا عنكم الكسَلَ والخمولَ وأنتم تقرؤون وتطالعونَ الكتبَ والرّسائلَ والمجلاّتِ، واتخذوا كُرَّاسةً لكلّ فنٍّ من الفنون لتسجيل الفوائد والفرائد التي تَعرض لكم، فمع مرور الأيّام ستجدونَ ثمراتِ هذه الفوائد، وقد ترتّبونها وتهذِّبونَها وتطبعونها بين دَفتي كتاب، ويستفيدُ منها غيركم؛ كما فعل كثير من أهل العلم والأدب قديمًا وحديثًا !

هم العدو فاحْذرهم !

إذا كنتُ تعتَمِدُ في قراءتك على الكتب التي يُنوِّه بها إعلامُنا الجاهل، ويرفعُ من شأنها أحلاسُ المقاهي، ويقوم بتزكيتها أصحابُ الأقلام المأجورة، ويُروّج لها أصحاب المال بجوائزَ تُدهش القارئ العادي.. إذا كنتَ كذلك فأنتَ والله محروم، ولم تستطع بعْدُ التّحرّر من التّقليد الأعمى، والتّبعية المرذولة حتّى في تكوينك الثّقافي !

لذّتي . . !

ويحدثُ أن تنفِقَ ليلَك كلّه أو نصفَه في سبيل البحث عن كلمة واحدة من كلام العرب.. كلمة استعصى عليك فهمُها صرفًا وتحويلًا، معنى ومبنى، ثمّ تفاجأ بهذا الكمّ الهائل من المعلومات وهذه المعاني الكثيرة لهذه اللّفظة التي أسرف في الإحاطة بها ابن منظور في لسانه، وبالغ في شرحها الزَّبيدي في تاجه، فلا تجد بعدما تنهي بحثك هذا المضني اللّذيذ إلا أن تلقي بكلّ هذه التّواليف المفتوحة أمامك، وتسترخي فوق سريرك ما وسعك الاسترخاء مُردّدًا بينك وبين نفسك :ما أعظمَ لغة القرآن !

ثم تنام قريرَ العين على وقع هذه اللّذة التي تملأ جوانحك حبًّا وتسربل قلبك شغفًا.. على أمل اللّقاء في اللّيلة الموالية مع لفظة أخرى !

استراحة قارئ

حينَ أنهي كتابًا قبل المدة التي خصّصتُ له، أعطي لنفسي راحة أرتّب فيها أفكاري، ومعلوماتي التي أفدتها من الكتب السابقة، وقد أتسلّى بكتابة بعض الخواطر العابرة، وأزور سوق الكتب المستعملة، وأخرج مع أبنائي لحديقة خالية من الضّجيج، وأحادث زوجتي في أمور منزلية لا علم لي بها.. وأتحدّث إلى والدتي الحنون، وأشاهد معها برامجها المُفضّلة "لحبيبة أمّي" أو "مختفون"، ثم أطلق العنان لمفاصلي لترتاح من هذا الكرسي الذي لا أبرحه إلّا لضرورة ليس لي منها بدّ.. وأمدّ رجلي ببراءة كما فعل أبو حنيفة يومًا !

لستُ شاعرًا

حاولت مرّة أن أنظم قصيدةً أعبّر من خلالها عن مكنونات نفسي هذه الضّيقة، فوجدتني حائرًا بين البحر البسيط والبحر الأبيض المتوسط كأعرابي في بلاد الإنجليز. فكسرت القلم ومزّقت الأوراق وأقسمت بأغلظ الأيمان أن أفرّ من نظم الشّعر فراري من الرّوافض الشّيعة !

نادرة

من النّوادر التي حكاها لي الشّيخ محمد بن إدريس بلبصير الضّرير حينَ كنتُ قارئَه وقائِدَه، قال: عندما كنتُ طالبًا بجامع القرويين بفاس، كانَ يسكن بالقرب من البيت الذي أقيم فيه مع الطّلبة فقيهٌ له مكتبة فوق السّطوح، يظلّ فيها اللّيل كلّه يقرأ ويبحث ويتدبّر ويستنبط، وكان إذا فتح الله عليه في مسألة من المسائل، يأخذُ دُفًّا كانَ يعلّقه في حائط غرفته، ويبدأ في الضّرب عليه بسعادة وفرح، وكان النّاس إذا سمعوا ضرب الدّف، يقولون: ها هو الشّيخُ قد فهمَ !

فتنة !

مازلت أذكر ذلك المساء قبل بضع سنوات حين نشَرت لي بعض الصّحف السّيارة في بلاد المغرب أوّل مقالة لي، مازلت أذكر تلك السعادة التي اعترتني وأنا أقلّب تلك الصّحيفة بيد مرتعشة حين وقعت عيني على اسمي، وكأنّها وقعت على كنز في بلد لا ماء فيه ولا شجر!.. ومازلت أذكر كيف قبّلت ابني عبد الرحمن- الذي كان برفقتي- بشراهة حتى كدت أمزّق خدّه الأملس البريء من شدّة الفرح، أما الآن فسبحان مبدّل الأحوال فقد أصبحت أنام ملء جفوني عن شواردها، ولا أبالي أنُشر اسمي في جريدة أم كتاب أم مجلة أم مقالة! وهذا القول ليس غرورًا أو كبرًا كما قد يحلو لبعض الخبثاء أن يسموه، لكنّها والله الدّنيا التي تبهرك أوّلًا ثم تجعل كلّ شيء يتلاشى مع الوقت.. ويا لسعادة من يدرك هذه الحقائق! فالدّنيا كلّها مجرّد خيال لذلك ينبغي أن يشغل الكاتب نفسه بالإخلاص ونفع أمّته، أمّا الشّهرة والتّنقيب عليها، فهي داء تكلّم عنه شيخنا علي الطنطاوي وأطنب في كثير من كتبه، وبيّن كوارثها، وقد قال بعض السّلف: ما اتّقى الله من أحبّ الشّهرة !

الشهرة

قالَ أحدُ السّلَف: ما اتّقَى اللهَ من أحبَّ الشُّهرة !

فتأمّلتُ هذه الكلمة فوجدتها تحتاجُ إلى تفصيل، فإنْ كانَ يقصد بالشّهرة حبَّ الظّهور وعشق الثّناء والمدح والعمل من أجل النّاس رياءً وسُمعةً، فلا شكَّ في أنَّ صاحبَ هذه النّية ليسَ متّقيًّا لله؛ لأنّها تتنافى مع إخلاص العمل الذي يرادُ به وجه الله والدّار الآخرة وبذلك تكون المقولة صحيحة منطقيّة لا شكّ فيها. أمّا من ناحية أخرى فالشّهرة مطلوبة إن كانت من تقيّ، غرضه منها أن يصلَ علمه المبني على كتاب الله وسنّة نبيّه إلى أكثر عدد ممكن من خلقه، مهتبلًا شهرته التي طبقت الآفاق وانتشارَ ذِكره الذي سار مسيرَ الشّمس والقمر..كحال كثير من العلماء قديمًا وحديثًا، فقد نفع الله بهم العباد والبلاد بسبب شهرتهم وحسن سيرتهم بين النّاس. والله أعلم !

انتهازية

إذا كنتَ خاملًا فتعلّق بعظيم، هكذا قالَ الأوّلون؛ لذلك نجد أغلب المُتطاولين على الأعلام والمقدّسات من هذه الأمّة من النّكرات والخاملين الذين يعشقون الشّهرة والذّكر ولو باللّعنات، وهناك أمثلة كثيرة عبر التّاريخ لا حاجة بنا لذِكرها في هذا المقام؛ لذلك نكتفي بثلاثة أشخاص كانوا خاملين فتعلّقوا بأمور عظام ليُلتفت إليهم ويُشار إليهم بالبنان، حتّى ولو كان في ذلك هلاكهم وحتفهم فلا يهمّ، الأوّل طه حسين، فقد ألّف كتابه في الشّعر الجاهلي في إبّان شبابه وفورته باحثًا عن الشّهرة والجاه، كما اعترف هو بذلك في آخر حياته، وقد كان له ما كان، فأصبح اسمه لا يجهله أحد من المثقفين والطّلبة وحتى العوام. والثّاني سلمان رُشدي هذا الخبيث الذي ألّف كتابًا اسمه آيات شيطانية فيه كلّ نقيصة وسبّ وشتم لديننا الحنيف، وما كان ليشتهر لولا أنّ الخميني الرّافضي اللّعين أهدر دمه، وكان النّاس حينذاك مخدوعين بثورته ولا يعرفون شيئًا عن الرّفض. وأمّا الثّالث فهو عدنان إبراهيم الذي نجم قرنه في السنوات الأخيرة، واغترّ به جماعة من الشّباب الجاهل الذي لا يقف على أرضية صلبة من العقيدة، فتطاول على الصّحابة، وعلى أمير المؤمنين في الحديث الإمام البخاري وغيره من الأعلام رحمهم الله. وعلى هؤلاء الثّلاثة فقِس، فإذا وجدت غرًّا أو قِردة تتطاول على علَم من أعلام المسلمين فاعلم أنّها وأنّه يبحثان عن اللّعنة وعن الشّهرة وعن المجد الضّائع في أوهامهم وأحلامهم السّاقطة!.

المجدُ للعلم والعلماء

قالت لي مكتبتي البارحة حين كنت مادًّا رجليّ بقرب رفٍّ من رفوف كتب التّفسير: يا ربيع، هل تدري أنّ العلماء هم الملوك والأمراء على وجه التّحقيق؟!

فرفعت إليها عينيّ متسائلًا: وكيف يكون ذلك يا أمة الله !

فقالت: كلّ الكتب التي أحملها على عاتقي لا يوجد بينها كتاب لأمير من الأمراء أو ملك من الملوك! بل أغلب هؤلاء العلماء الذين يتربّعون علي عرشي كانوا من الفقراء وأبنائهم، ومن البؤساء وأحفادهم! ولكن العلم والأدب والفكر خلّدهم وجعلهم يعيشون خارج الزّمان والمكان، بخلاف الملوك الذين في وقتهم ملؤا الدّنيا وشغلوا النّاس وطغوا عليهم، فإنّني لا أسمع لهم بين رفوفي ركزًا ولا همسًا. اللهمّ إلّا ذلك الظّلم المصحوب باللعنة في كتب التّاريخ والتّراجم !

فبقيتُ متفكّرًا في قولها ليلي كلّه إلى أن هجم عليّ طيرُ الكرى؛ فنمت نومًا هادئًا، وفي نومي رأيت مناديًا ينادي: لمثل هذا فليعمل العاملون.!

لا يشكرون !

بعضُ من ابتلاهم اللهُ بالغباء يَعتقدونَ أنَّ الأديبَ الذي يحدّثُ النّاسَ عن نفسِه مُوغل في "أناه" ومسرفٌ في "نرجسيته"، ومبالغ في حبّه لذاته!.. وهذا كلام باطل لا يقوله إلَّا "جُوَيْهل" ضائع لم يتشرّف من قبل بدراسة الأدب وتذوّق فنونه!. وكم كان يجول بخاطري أن أكتبَ عن هذا الفهم السّقيم والظّلم العظيم الذي يرمي به من لا خلاق لهم غيرهم من النّاس، حتّى إذا كانت ليلة العيد قبل أيّام جعلتُ أطالع بعضًا من مقالات الشّيخ الأديب "علي الطّنطاوي" فإذا بي أجد ما كنت سأقوله فارتحت ارتياحًا واطمأنّت نفسي إليه اطمئنانًا، وحمدتُ الله حمدًا كثيرًا أن كفاني مؤونة الكتابة، إذ إنَّ قلمي ليس كقلم الطّنطاوي ولا نصيفه، واحترام القرّاء وثقتهم له ليس كاحترامهم وثقتهم بربيع السّملالي !فدونكم قوله غير منقوص كما في كتابه "من حديث النّفس ص 89 / تحت مقالة / عيدي الذي فقدته": ولا تقولوا إذا سمعتم حديثي: هذا رجل لا يتكلّم إلّا عن نفسه. فكذلك الأدباء كلّهم؛ لا يتكلّمون إلا عن أنفسهم، ولكنّهم إذ يصفون أحلامَها وآلامَها يصفون أحلامَ الناس كلِّهم وآلامهم، فهم تراجمةُ العواطف، وألسنة القلوب، وصدى الخواطر، حتى ليقول القارئ إذ تمرّ به آثارُهم: ما هذا؟ إنَّ في هذا التعبير عمّا أحس به؛ إنه وصف لي أنا وحدي.. وما هو له وحدَه؛ إنّه وصف لكل نفس بشرية. ألا ما أعظمَ فضلَ الأدباء على الناس! ولكنّ النّاس لا يشكرون!

ابن تيمية

كنتُ طرحتُ سؤالًا غيرَ بريء على صفحتي العامة الفيسبوكية "الكاتبُ/ ربيع السملالي" مفاده:

مَنْ صنع "داعش"؟

فكتب أحدُ المعلّقين: كُتبُ ابن تيمية هي التي صنعتها!

وهذا خطأ فاحش لا يقول به إلَّا من قلّ نصيبه من العلم الشّرعي؛ لأنّ كلّ كتب العلماء المعتبرين قديمًا وحديثًا بإمكان كلّ منتسب لداعش وغير داعش أن يأخذَ منها ما يوافقُ هواه، بل كتاب الله نفسه يَستدلّون بآيات منه تتماشى مع اعتقادهم ومنهجهم، وهذا شيء معروف لا يحتاج منّا لكثير عناء لشرحه وتفصيله.. لكن الذي ينبغي أن يعرفه هذا القائل وأمثاله؛ أنّ كلّ فرقة وجماعة إنّما تنحرف بسبب سوء الفهم، وأخذهم العلم من الكتب مباشرة دون الرّجوع إلى أهل العلم وثني الرّكب في مجالس علمهم لأخذ العلم من أفواههم.. وهذا شيء ليسَ وليدَ العصر بل على مرّ السّنين؛ لذلك كانوا يقولون قديمًا: لا تأخذ علمك عن مُصحَفي ولا صُحُفي، وقالوا: من البليّة تشيّخ الصّحيفة.

إذًا فليسَ العيب في ابنِ تيمية وكتبه، بل العيب في الأغبياء الذين يقرؤون لابن تيمية وليس لهم مستواه العلمي والفكري، وابن تيمية- رحمه الله- لا يخرج عن الكتاب والسّنة وأقوال الصّحابة وإجماع أهل العلم قيد شعرة، ومع ذلك لا نقول بعصمته وعدم خطئه، بل هو بشر كسائر البشر، وصوابه أكثر من خطئه، والعِصمة دُفنت مع سيّد ولد آدم ﷺ.

ومن طريف ما قرأت في هذا الباب: أنّ رجلًا جاهلًا أراد أن يقرأ الحديث الصّحيح: "في الحَبَّةِ السوْدَاءِ شِفَاءٌ من كل دَاءٍ إلَّا السَّام"! قرأها: في الحيّة السّوداء شفاء.. فذهب يبحث عن حيّة "أفعى" سوداء ليتداوى بها!

زمخشر

قد يرفعُ الله ذِكرَ قريةٍ من القرى الخامِلة التي لا قِيمة لها ولا عنوان في هذا العالَم الفسيح؛ بسبب عالِم من العلماء، أو شاعِرٍ من الشُّعراء، أو أديبٍ من الأدباء، والأمثلة على هذا كثيرة جدًّا؛ لذلك سأكتفي بذِكر عالِم لُغوِي نَحْوي بلاغِي مفسِّر واحد، سار بذكره الرُّكبان...، وله القِدْحُ المعلَّى في بِدعة الاعتزال، يوصف منسوبًا لقريته النَّكرة المغمورة "زَمَخشر"! وهو أبو القاسم محمود بن عمر الزَّمخشري الخُوارِزْمي، صاحب التَّفسير المشهور: "الكشَّاف عن حقائق التَّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التَّأويل"، وقد مُدِحتْ قريةُ زمخشَر بأشعار كثيرة وقصائد رنَّانة، وكلُّ ذلك لخروج الزَّمخشري منها، وانتسابه إليها، وإلَّا فهي بقعةٌ صغيرة مجهولة في زوايا أراضي خُوارزم!

فائدة

الكاتبة الإنجليزية أجاثا كريستي "***Agatha Christie***" أحفظ لها مقولةً غريبة، تقول فيها :

أفضلُ زوج يمكن للمرأة أن تتزوّجَه هو عالم آثار، فكلّما زادَ عمرها زاد اهتمامه بها !

فعرفت فيما بعد أنّ هذه المقولة صادرة عن تجربة!.. فهي زوجة عالم آثار مشهور اسمه "ماكس مالوان"..!

ومن غريب الاتّفاق أنّ النّاقد والرّوائي والمُترجم الكبير جبرا إبراهيم جبرا ذكرَ أنّه كان مع عالم آثار أجنبي في أحد المواقع في العراق، وقدّمت لهم زوجته الشاي، وبعد مدة علم أن هذه الزوجة هي أجاثا كريستي! وهذا الخبر قرأته مرّة في تغريدة للأستاذ عبد الله الهدلق.

وللفائدة: فهذه الرّوائية لا يوجد لها مثيل في التّاريخ كلّه في كتابة الرّواية البوليسية، وتعدّ رائدة فيها، وكانت لها همّة عالية في الكتابة، ورواياتها- لكثرتها- يصعب على الواحد منّا- نحنُ أدعياءَ الثّقافة- عدّها وحصرها !

الموهبة

كان أبو منصور الثّعالبي "صاحب كتاب يتيمة الدّهر" فرّاءً يخيط جلودَ الثّعالب في أوّل حياته، فانتقل إلى صناعةِ الكَلِم، واشتغل بالأدب والتّاريخ فاشتهرَ شهرةً عظيمة، وسار ذِكره في الآفاق!

لذلك فلا ينبغي للشّباب من أرباب الصّنائع أن يظنّوا ويسرفوا في الظّنّ أنّ الأدب والعِلم والاشتغال بهما وقْفٌ على أهل الشّهادات، فربّ نجّار له شاعر أو أديب ينام في أعماقه وهو لا يدري بسبب الخمول واحتقار النّفس، وربّ حامل دكتوراه أو حاملة ماجستير لا يستطيعان تركيب جُملة مفيدة. وهذا إيليا

أبو ماضي الذي ملأ الدّنيا وشغل النّاس بشعره التّفاؤلي الجميل كان يبيعُ السّجائر في بداية شبابه، وأولِعَ بالأدب والشّعر حِفظًا ومطالعةً ونظْمًا، حتّى صار من كبار شعراء المهجر، ومن أعضاء الرّابطة القلَمية فيه. ولا أظنّ أحدًا يجهله من المتأدّبين!

وقاحة الأدب

كثير من أدعياء الأدب لاسيما الذين يشقّون طريقَهم نحو "الرّواية" وكتابتها يتّخذون من قلّة الحياء، و الاستعراء ركنًا هزيلًا يأوون إليه كلّما جنّ ليل الكبتِ على دنياهم.. يتمرّغون في أوحال الأعضاء التناسلية كالكلاب الشّاردة في بيداء حيوانيتها، هدفُهم الشّهرة والمال ولو على حساب دينهم وأخلاقهم إن كان لهم دين أو أخلاق. المهم أن يكونوا شيئًا ذا بال، يُشار إليهم بالبنان، وتتداول أخبارهم الألسنة، ولو باللّعن! كما ذكرَ بعضُ المؤرّخين عن رجل في الزّمن السّالف أنّه بال في ماء زمزم على مرأى ومسمع من المسلمين حينذاك؛ فأخذوه لتُضربَ عنقه، فسُئل: ما حملكَ على ما صنعتَ؟ فقال بوقاحة كوقاحة أدونيس، بل كوقاحة يوسف السّباعي وهو يقدّم لروايته "أرض النّفاق"!: أردتُ أن أدخلَ التّاريخ !

وها قد دخل فعلًا، ولكن مصحوبًا بلعنة من الله تشيّعه كلّما جاء ذكرُه على ألسنة القرّاء.!

ذهول

حينَ قرأتُ أوّلَ مرّة عن الجاحظ أنّه بسبب العلم والمعرفة وانشغاله بهما نسيَ كُنيته ثلاثة أيّام، إلى أن ذهبَ إلى أهله يسأل: يرحمكم الله بمن أكنّى؟!.. فقيل له بأبي عثمان. وهذا الخبر ذكره إمامُ المحقّقين عبد السّلام هارون في مقدّمة تحقيقه للبيان والتّبيّن، حين قرأت ذلك وقفتُ منبهرًا مُعجبًا مندهشًا، وقبل يومين وجدت خبرًا أكثر منه اندهاشًا، ذكره العلّامة أبو غدّة في كتابه المِعطار "صفحات من صبر العلماء" لعالم من العلماء كان منشغلًا بتحقيق مسألة، فقال لغلامه بعد ذلك: ناولني نعلي، فقال له الغلام: نعلكَ في رجليك يا مولانا !

يقتُلها الظمأ !

زرتُ مكتبة قبلَ أيّام تقومُ على شؤونها فتاة ليست جميلة، رغم كثرة المساحيق الدّسمة المنتشرة على وجهها الفاني، فسألتها حفاظًا على الوقت عن ثلاثة كتب للدّكتور عبد الفتّاح كيليطو: لسان آدم، وحصان نيتشه، ولن تتكلّم لُغتي، فحكّتْ رأسها مستغربة، وكأنّني سألتها عن مرض مزمن ضائع بين الرّفوف، فقالت: لا، لا. هذه العناوين لا توجد عندنا، وبما أنّني أعلم أنّ أغلب القائمين على شؤون المكتبات لا يعرفون شيئًا عن الثّقافة والمعرفة، وحالهم كما قال الشّاعر:

كالعِيس في البيداء يقتلها الظّما والمـاء فوق ظهورها محمولُ

فقد تجاوزتها ودخلتُ أبحث بنفسي عن هذه الكتب، فوجدتُ أكثر أعمال الرّجل- بعد جولة قصيرة- فوق رفوف يعلوها الغبار والإهمال، فأخذت ما أحتاجه منها، بعدما دفعت عنها الأتربة العالقة ببياضها المُغتصب، وبزهو وافتخار ذهبت إلى صاحبتنا لأنقدها ثمنَها، فنظرت إليّ بخجل أنثوي غير بريء، وكلمة "أعتذر" مختومة براءٍ مُرقّقة تدلّ على الحرج الشّديد الذي سببته لها، فجاملتها بقولي: أعرف أنّ متاعبكم كثيرة، وكثرة العناوين هنا لن تستطيعوا حِفظها حتى ولو كنتم كأبي العلاء المعرّي والبشير الإبراهيمي في قوّة الذّاكرة، لم تستوعب ما أهذي به؛ لذلك اكتفتْ بابتسامة رشيقة لا معنى لها انبثقت من فمّ واسع استبدّ به أحمرُ الشّفاه فجعله مشوّهًا.

مكتبة منزلية

في كثير من الأحيان تصبح كثرةُ الكتب نِقمةً على صاحبها، إذ من كثرتها لا يستطيع القراءةَ في كتاب معيّن فيقع في حيرة لا تُحمد عقباها، لاسيما الّذي ليس له منهج معيّن في قراءة الكتب وسبر أغوارها، وإنّما يعيشُ في فوضى لا أبا بكر لها. فيكون بذلك كما قال الشّاعرُ قديمًا وهو يصف رجلًا صيّادًا اسمه "خِراش" خرج يومًا للصّيد فوجدَ من الظّباء ما لا يستطيع له حصرًا ولا عدًّا :

تكاثرتِ الظّباءُ على خِـرَاشٍ   فما يدري خـراشٌ ما يصيدُ !

ففي هذه الحال مكتبة منزلية صغيرة تضمّ بين رفوفها عددًا من الكتب لا تتجاوز العشرين نستطيع قراءتها وفهمها جيّدًا، أفضل من مكتبة تحمل على كاهلها مئات المجلدات لا تمتدّ إليها يدُ أصحابها إلَّا إذا أرادوا الانتقال بها إلى مكان آخر أو زاوية أخرى من البيت، فقط يعلوها غُبار الإهمال والهجران.!

لذّة شراء الكُتب

هل جرّبتَ يومًا أن تقتطعَ جزءًا من مالك الذي أنفقت في سبيل تحصيله الأيّامَ واللّيالي، وتركت الرّاحة والإخلاد إلى النّوم، وأنتَ فقير لا تملك من الدّنيا إلّا ما تملأ به بطنك وبطن أبنائك وذويك مخافةَ الجوع؛ اقتطعته من أجل ماذا؟! من أجل كتاب تريد به دفع الجهلِ عن نفسك الأمّارة بالسّوء، وتحصيل المنفعة التي تجعل منك إنسانًا خلّد الله فضائله الحسنة في كتابه العزيز. فإنّ لهذا الإنفاق لذّة لا يعرفها إلّا من ذاقها. بخلاف من يستعير كتابًا من غيره أو يحمّله من "الإنترنت"؛ لأنّ الذي يجاهد وينفق المال من أجل المعرفة والعلم وتثقيف الذّات يكون بالضّرورة عاشقًا! لاسيما حين يكون فقيرًا فيعرض عن بعض الكماليات"البطنية"؛ ليشبع ضرورياته "الفكرية" !

بستان الروح

سألتني ماذا تفعلُ يا ربيع؟!

فرفعتُ عينيّ عن كتابي إليها مبتسمًا، وبلغة أظنّها سليمةً أجبتها قائلًا: جُعلتُ فداكِ إنّي أعيش بين بساتين مقدّمات كتبي الجديدة، وحقول فهارسها منتشيًا وراضيًا مسرورًا، وقد كان للأدب الحظّ الأوفى من كلّ هذه التّواليف التي رحلت في سبيل اقتنائها إلى هناك؛ حيثُ الازدحام وكثرة الطّغام، ولولا اكتحال أعيننا برؤية أحبتنا واحتساء كؤوس الود معهم لضقنا بهذا السّفر ذرعًا، ولردّدنا بيننا وبين أنفسنا: إنّ هذا السّفر ثقيل على النّفس شديد على الأجسام العليلة التي اختارت العزلة عن الخلق منهجًا لها منذ أمد بعيد. وكلّ يهون يا حبيبتي في سبيل الكتب والأنس بها، والعيش تحت ظلال جاحظها، ومبرّدها، وقاليها، وابن قتيبتها، وأغانيها وزهر آدابها وأعلامها وتاريخ بغدادها، ومعجم أدبائها، ووفيات أعيانها مع بدايتها ونهايتها ودواوين شعرائها، ولسان عربها ومقاييس لغتها وأساس بلاغتها ويتيمة دهرها وسقط زندها ولزوميات معرّيها، وهلمّ عشقًا وحبًّا وهيامًا وغرامًا.!

فابتسمتْ في غير ارتياح وقالت: أعانك الله!

أخبارُ الغرقى!

في معرض الكتاب تجد القارئ الجادّ شاردًا لا يرى شيئًا إلا عناوينَ الكتب والبحثَ عن الغنائم، والقارئ الآخر تجده لا يتصفّح شيئًا غير الوجوه البشرية المتراكمة، لعلّه يظفر بوجه كاتب أو أديب أو عالم ضائع وسط هذه الحشود؛ ليلتقط معه صورة، يعرضها على أصدقائه "الفسابكة"، ويقال: فلان ما شاء الله علاقته بأهل العلم والأدب طيّبة، كلّ عام نراه في صورة مع أحدهم!

أمّا إذا سألوه ما هي الكتب التي اشتريتَ من المعرض: فيردّ عليهم بجهل وغرور، لا شيء! هذه السّنة لم يكن المعرض موفّقًا، تصوّر بحثت عن كتاب "تفضيل الكلاب عن كثير ممن لبس الثياب" ولم أجده!!..

أمّا الذّاهبون إلى المعرض من أجل الفسحة، ومعاكسة نون النّسوة فحدّث ولا إثم عليك!

طُـرفـة . .

وجدت مرّة فتاة صغيرة توقّع كتابًا صغيرًا لها أطلقت عليه اسم "ديوان"! فحملني الفضول على تصفّحه فوجدت هذه الضّائعة كاتبةً في الغلاف الخلفي نموذجًا من شعرها تقول في بدايته.. "ثدياي كبيران كثديي أمّي...!" وعلى هذه النّماذج فقِس!

ملحوظة

أغلب كُتّاب الرّواية العربية ينبغي بل يجب أن يعودوا إلى دراسة بعض المتون في التّوحيد والعقيدة الصّحيحة، حتّى لا يتمادوا في أذيتنا وتسفيه ديننا ونحن نطالع ما تجود به قرائحهم غير المنضبطة بشرع الله !.فعن تجربة أقول: إنّي طالعت مئات الرّوايات فوجدت السّواد الأعظم منهم أميًّا في الشّريعة هزيلاً في الأخلاق. فمنهم من قضى نحبه وأمره إلى الله، ومنهم من لا يزال على قيد الضّياع نسأل الله له الهداية !

رِفقًا بقواريرِ الأدب!

انتقدَ كتابَها وأبدى انطباعاته عليه، بطريقة تنمّ عن مستوى رفيع لديه، لكن قسا عليها قليلًا في بعض العبارات، فقامت قيامتها، وقالت كما يقول الضّعفاء في مثل هذا الموضع: أين شواهدك؟، أين أدواتك النّقدية؟، ومن أنت ومن أساتذتك ومن شيوخك حتّى تنتقدَ كتابي، اخرسْ. وفي اليوم الموالي تقدّم لها رجل جاهل بقرابين المدح والثّناء مصحوبة بإحراق بخور المجاملات السّمجة؛ فقالت له بسعادة طفولية: أخجلتم تواضعي أستاذنا، شكر الله لكم حسن ظنّكم، والله لأنت رجل طيّب ونبيل ولكم بعد نظر، ثمّ باتت ليلتها تحت ضوء القمر وعبارات الثّناء تداعب قلبها الصّغير الذي لا يحتمل.!

علماء الدنيا والآخرة

كان علماء الآخرة يفترشون الحصير، ويلبسون الخَشِنَ من الثّياب، ويسكنون مساكنَ متواضعة لا فرق بينها وبين بيوت الفقراء، لكنّهم كانوا مخلصين؛ قَوَّالين للحقّ تخافهم الملوك والأمراء، أمّا اليوم فعلماء الدُّنْيَا المنتسبون إلى هذا الدّين يلبسون النّاعم من الثّياب ويأكلون أطيب المآكل وأشهاها، ويسكنون في منازلَ كالقصور ويركبون أفخر السّيّارات، لكنّهم جبناء عبدوا الحكّام الظّلمة سفّاكي الدِّمَاء، آثروا الحياة الدُّنْيَا على الآخرة فأذلّهم الله ونزع من قلوب النَّاس هَيْبَتَهم وجعل منهم لقمة سائغة في أفواه كلّ من هبّ ودبّ، وأصبحت الكلمة الحكيمة لابن عساكر "لحوم العلماء مسمومة" لا قيمة لها عند النَّاس، لسان حالهم: تبًّا لعلمهم وللحومهم الخبيثة التي تأكل وتتعيّش باسم دين الله، ودين الله منهم براء!

لا ينصرفُ !

قرأتُ في بعض الكتب أنَّ أهلَ البدعة أرادوا أن يصرفوا ابنَ حنبل عن الحقّ، فما انصرَفَ؛ لأنَّ أحمدَ ممنوع من الصّرفِ !

قال ربيع: والمانع له من الصّرف ليسَ العَلَمية ووزن الفعل كما يقولُ النُّحَاةُ.. ولكن المانع له من الصّرف هو عقيدته الصّحيحة الصّافية التي أخذها عنْ كتاب ربّه وصحيح سنّة نبيه صلّى الله عليه وسلم، لا يحيد عنهما قِيدَ أنمُلَةٍ، بل صارَ مقتنعًا أنّ ضربَ عنقه في غير حدٍّ أهون عنده من أن يقول في الإسلام قولًا باطلًا يكون سببًا في ضياع الآلاف من التّابعين له.

السيرة الذاتية

ليسَ حسنًا، بل قبيحًا أن تفكّر في كتابة سيرتك الذّاتية وأنت كاتب مغمور، وشابّ ليسَ له من التّجارب ما ينفع القارئ، فالشّخصية العامّة التي لا يكاد يجهلها أحد هي التي تكتبُ سيرتها وتجاربها العلمية والأدبية بعد سنين طويلة من الكفاح والنّضال والجهاد في سبيل المعرفة؛ لكي يستفيد منها القرّاء والباحثون والأساتذة. أمّا أن تسرد علينا حياتك وكيف وُلدت وكيف نشأت وكيف ترعرعت وكيف خُذلتَ في هذا العالم البائس، وما أشبه ذلك، وأنت لم تتجاوز عقدك الرّابع، وليسَ لك من العلم والأدب ما يستحقّ الذِّكر فهو هراء لا أحبّذه لك ولا لنفسي.!

عشقٌ

الكاتبُ ينظرُ إلى كتابِه كما ينظرُ أحدنا إلى ولدٍ من أولاده، فيحبّ الثّناء عليه، ووصفه بأجمل الأوصاف حتّى ولو كان هذا الكتاب لا قيمة له، وذاك الولد من أغبى الأغبياء!

لذلك نجد بعض الكتّاب العمالقة يضيقون ذرعًا بالنّقد والنّقاد، وأذكر على سبيل المثال: طه حسين، والعقّاد، ونزار قباني، فهؤلاء الثّلاثة إذا انتقدهم أحد تقوم الدّنيا ولا تقعد.. فمنهم من يردّ الصّاع صاعين بعنف كالعقّاد، ومنهم من يلتزم الصّمت والغيظ ينهشه، كنزار، ومنهم من ينتصر لرأيه ويتمادى كطه حسين!

الأموات.. الأحياء!!

سُبحان الله حينَ أجمع مؤلّفاتِ عالم أو أديب أو كاتب لقراءتها ودراستها؛ أشعرُ به حيًّا يُرزق، وروحه تُرفرفُ في سماء غرفة المكتبة، وكلماته وعباراته على طرف لساني، وعقلي ووجداني، وحين أنصرف عن القراءة أو أنشغل بشيء آخر، أجدني أفتقده وأحنّ إلى الاستماع إليه، والتّلذذ بكلامه. نعم ليست مبالغة فهو شعور غمرني، وأطربني فرأيتُ أن أسجّله في هذه الورقة..!

عملاء

قبلَ أن تخوضَ غِمارَ الكِتابة يجبُ عليكَ أن تكونَ ذا شجاعة يخرّ لها أهل الباطل سُجدًا. أمّا علوم اللّغة والنّحو والبلاغة، فذاكَ شيء لا أعتقده يحتاج لكثير عناء إن كنتَ صادقًا في طلب العلم والأدب، وها أنتَ ترى كثيرًا من العلماء قد دخلوا مساكنهم والتزموا الصّمتَ وقالوا هذا مغتسل بارد وشراب، ضُربتْ عليهم الذّلة والمسكنة، وطوّقهم الجبن ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف، بدعوى الفتنة، ألا في الفتنة والنّفاق سقطوا وأصابَهم الوهَن الذي هو حبّ الدّنيا وكراهية الموت :

متى تصلح الدّنيا ويصلح أهلها... وقاضي قضاة المسلمين يلوطُ !

اللهمّ سلّم سلّم !

لغة الأديب

الأديبُ المتمكّن هو من يصنعُ من المشاهد التّافهة في الحياة إبداعًا يليق باللّغة العربية وجمالها، يُدخِلُ السّرورَ على نفسية القارئ بأسلوبه السّهل الممتنع الذي لا يرهقه ولا يجعله يفزع كثيرًا للمعاجم قصدَ شرح بعض المفردات الخَشِنة، كما يفعل بعض المتشدّقين المصابين بمرض الرّياء اللّغوي؛ لذلك كانَ خير تعريف للأدب أنّه التّعبير عن الحياة أو بعضها بعبارة جميلة !

ارجع !

ارجِع فتعلَّم الأدبَ فإنّكَ لم تتعلّمْ، واقرأ ما كتبَه العلَّامةُ بكر أبو زيد في رسالتيه النّفيسَتيْنِ "حلية طالِب العلم" و "التّعالم وأثرُه على الفِكر والكتاب"، ثمَّ إذا انتهيتَ من استيعاب ما جادَ به من دُرر وفوائد، يجملُ بكَ أن تطالعَ رسالة "رفع الملام عن الأئمة الأعلام" لشيخ الإسلام ابن تيمية، وبعدها انطلقْ إلى المجلد الأوّل من كتاب "مفتاح دار السّعادة" لتلميذه البار ابن قيّم الجوزية، عُبَّ منه وانهل حتّى ترتوي وتدفع عنك ظمأ الجهل الذي استبدّ بك أيّامَ الهواجر في صحراء "الفيس بوك"؛ حيثُ لا ماء ولا شجر !

أرض مَوَات

طلبوا منّي أن أكتبَ روايةً بدعوى أنّ أسلوبي في السّرد مشوّق، فاشترطتُ عليهم أن تكون النّهاية سعيدة وأن يكون المضمون عن تلك النّائمة في أخلادي، فأشاحوا عنّي بوجوهم، وقالوا بسُخرية لاذعة: أما آن لك أن تستفيق من هذه الأوهام التي تستبدّ بك مذ عرفناك وقرأناك !

فكسّرت أقلامي ومزّقت أوراقي وأعرضتُ عنهم إعراضي عن اللّغو والهَذر،.. ثم انصرفت وأنا أردّد: لا مكان للحبّ ولا شيء يستحق البقاء على قيد الضّياع !

اعملْ بحبّ!

حينَ تُقبل على عمل برغبةٍ ونشاط، تجد نفسَك في الأخير متقنًا له، راضيًا عنه، سعيدًا بما صنعتْ يداك، أمّا إذا كنتَ مدفوعًا إلى ذلك دفعًا، أو لا تفعله إلا من أجل غرض معيّن، أو هدف لاحَ في أفق حياتك فجأة فإنّه يأتي مبتورًا ضعيفًا لا قيمة له ولا وزنًا. وخيرُ مثال على ذلك تأليفُ الكتب، فإنَّك كثيرًا ما تجد كتبَ العلماء غاية في الإتقان، وروعة في التّصنيف والتّبويب بخلاف غيرهم الذين لا يؤلّفون إلا من أجل شهادات تطعمهم خبزًا وترفع لهم ذِكرًا بين النّاس.

لكل امرئٍ من دهره ماتعوّدَا

حينَ أطالع السّير الذّاتية والمذكّرات الأدبية لأدباء إسلاميين أجدهم يكثرون من ذِكر المساجد والبقاع المُقدّسة التي أنعم الله عليهم بزيارتها، أمّا غيرهم من كتّاب الحداثة والعَلْمنة واللّبرلَة فإنّ كتاباتهم تفوح منها رائحة الخمر والسجائر والنّساء المُتعفّنات، إذ إنّهم يكثرون من ذِكر الحانات والمقاهي وبيوت الدّعارة المُقنّنة !

✍ ✍ ✍

بلا مجاملة

سألني صديق عزيز عن رأيي في أكتوباته بصراحة !

فكان جوابي كالتّالي: لك أفكار جيّدة في العموم لكن أغلبها متداول ولا تجديد في أكثرها، أمّا من ناحية الشّكل أو ما يسمّيه النّقاد "المبنى" فعندك تكلّف لا يخفى، وخشونة في اللّفظ لا يستسيغها كثير من النّاس؛ لذلك أوصيك أن ترسلَ نفسك في الكتابة على سجيتها، ولك في كتب الشيخ علي الطّنطاوي خير عِبرة؛ فلُذْ بما خلّفه من تصانيف، واعكف عليها ما وسعك الاعتكاف، ثمّ عرّج على بعض كتب طه حسين، كرائعته "الأيّام" وجميلته "الوعد الحقّ" وتُحفته "دعاء الكروان" !

وكنْ في الكتابة موهوبًا صادقًا، لا مُتصنّعًا كذوبًا !

من بركةِ العلم

سُرعة البديهة يمتازُ بها الأديب، والجواب الكافي عند الحاجة من بركةِ العلم !

عثر المعرّي برِجل أحد المُتغطرسين، فقال من هذا الكلب: فأجابه المعري ببديهة الأديب: الكلبُ من لا يعرفُ للكلب سبعين اسمًا !

وقال أحدُهم لابن شُبرمة: من عندنا خرج العلم، فأجابه في الحال: ثمّ لم يَعُدْ إليكم !

وأكل أعرابيٌّ عند أمير من الأمراء وكان شرهًا، فقال له الأمير: مالك تأكلُ الخروفَ كأنَّ أمّه نطحتك؟!

فأجابه بل فاجأه بقوله: ومالك تُشفِقُ عليه كأنّ أمّه أرضعتك !

ويُحكى أنّ رجلًا أراد إحراج المتنبي، فقال له: رأيتك من بعيد فظننتكَ امرأةً !

فقال المتنبي: وأنا أيضًا عندما رأيتُك ظننتك رجلًا !

وهذا باب واسع قد جمعت منه ما وصلت إليه يدي إبّان مطالعتي قديمًا، في كتاب سمّيته "لطائف الأجوبة" في أكثر من مائتي صفحة ثمّ أهملته، وتركت غبار الإهمال يعلوه بين الرّفوف !

أدب الزيارة

إذا زرتَ عالمًا أو أديبًا أو طالبَ علم في بيته، ورأيته يكثرُ من النّظر في ساعته اليدوية، فكن فطنًا ولا تسرِف في الجلوس إليه، حتّى لا تحوجه إلى بري أقلامه وحزم دفاتره وتقطيع أوراقه، كما كان ابن الجوزي يفعل حين يزوره من لا قيمة للزّمن عنده !

المُجاملون !

قال لها: لم أقرأ لأحدٍ من قبلُ يكتبُ بهذا الإبداع الذي تخطّينه بيمينك، وهذه الرّوعة التي يمتاز بها قلمُك الثّرّ !

فشعرت بزهو وافتخار وكاد العُجبُ والغرور يفتكانِ بما تبقّى في وجهها من حياء!

ثمّ اكتشَفَتْ بعد ذلك أنّ هذا المُجاملَ الغالي "من الغلو" لم يقرأ كُرّاسةً ولا كتابًا ذا بالٍ طولَ حياتِه !

مُجرّد وهم

صدر له أوّلُ ديوان شعري في عشر ورقات، ثمّ كتب في صفحته الفيسبوكية لمتابعيه الكثيرين: غدًا أكون في المعرض الدّولي للكتاب لمن يريد رؤية فضيلتي، والتقاط صورة مع حضرة سموّي.وفي الغد لم يلتفت إليه أحد، فأخذ الدّيوان وأعاد قراءته بعين فاحصة !

انكسار

استخدمت في أوّل كتاب مطبوع لي كلمة "انكسار" في عنوانه؛ لأنّني قضيت شطر عمري بل كلّه منكسرًا، وكان سبب انكساري الأوّل وأنا دون السّابعة موت أبي بحادثة سير مروّعة، والسبب الثّاني بعدما اكتشفت أنني زُرِعتُ في وطن لا يتّسع لأحلامي !

النبض الثانى

مع النّفس

همسة في أذن والدي ! !

لو عادَ أبي من مرقده لهمستُ له في أذنه بهذه الكلمات: إنَّ اختيارَك للزّواج من والدَتي كانَ مُوفّقًا أكثرَ ممّا كنتَ تتصوّر، فقد تركتها في عنفوان شبابها ورحلتَ إلى الدّار الآخرة، تركتَ لها مسؤولية ثقيلة، تنوء بحملها الجبال، تركتها في فقر مُدقع لا تحمد عقباه، مع صبية صغار لا يجدون رغدًا في العيش، ولا طمأنينةً في البال، ولا راحة في مسكن أو ملبس. إنّها لم تفكّر في الاقتران برجل سواك يحمل عنها تصاريف الزّمن ومرّ العيش في ظلّ حياة مأساوية كُتب علينا أن نحيا بين براثينها، كما تفعل كثير من النّساء الأرامل، إنّها قاومت بكلّ ما تملك مستعينة بالله، ثمّ بجدّتي لتوفّر لنا لُقمة العيش، ومسكنًا نختبئ تحت سقفه المهترئ من حرّ الشّمس، وبرد الشّتاء. ومازال هذا دأبها وهِجِّيرَاها إلى أن أصبحنا نعيش كما يعيش الشّعب، ونأكل كما يأكل الشّعب، وندرس كما يدرس أبناء الشّعب في المدارس العمومية المتّسخة، التي تكثر فيها روائح الأحذية النّتنة، ودخان السّجائر الرّخيصة التي كان يبتلعها بشراهة بعض المعلّمين من الطّبقة الكادحة. والحديث طويل وحزين يا أبي؛ ولكيلا أثقل عليك وعلى نفسي سأنهي همستي إليك بعتاب: قدّر الله وما شاء فعل، لكن ما كان ينبغي

لك أن تكون متهوّرًا في تلك السّرعة وفي تلك السّاعة المتأخرة من اللّيل وأنت تقود سيّارتك، وتحمل بعضًا من أفراد أسرتك؛ فيباغتك الأجل وقد بُترت يدك، وفارقت روحك الجسد كما فارقت الابتسامة ملامحنا الصّغيرة لسنوات كئيبة لا يعلمها إلّا الله. غفر الله لك ورحمك !

✍ ✍ ✍

أحنّ إلى أمّي

سألتُه: ما هي أمنيتك في الحياة يا صديقي؟

فشرد بعينيه نحو الأفق البعيد، حتّى خيّل إليّ أنّه يبحثُ عن نجم أفل، ضاع بين بروج السّماء وضبابها المتراكم، ثمّ قال وقد سقطت دمعة يتيمة على خدّه اليابس :

أمنيتي أن تعود أمّي إلى الحياة فأعانقها بعنف وأقبّلها بامتنان، وأجلس إليها كما لم أجلس إليها من قبل، أن أبرّ بها وأقبّل يديها عند كلّ شروق شمس وغروبها، وأن لا أعصي لها أمرًا مهما كان ثقيلًا على قلبي. أن أفتح عيني على وجهها الصّبوح وهي توزّع دعواتها على أبنائها قبل انطلاقهم إلى العمل، أن أعطيها من مالي حتّى ترضى، بلا بخل ولا لؤم ولا تأفّف. أن أحكي لها همومي ومشاكلي وضياعي في هذه الحياة كلّما ضاقت بي السّبل، وجنّ عليّ ظلام البؤس والقلق. أن أعصي في سبيلها زوجي وأزجرها كلّما حاولتْ أن تنقل إليّ كلامًا يفسد ما بيننا من وشيجة وأمومة وحنان وحب، أن أقول لأمّ أولادي إمّا أن تحترمي أمّي أو سيكون مصيرك الرّجوع إلى بيت أبيك في غير رحمة ولا شفقة..ااااه يا صاح، ضاعت كلّ أمنياتي وتلاشت كلّ أحلامي بعدما تلاشت أمّي وضاع منّي وجهها الحنون !

الأيام

وقفتُ أمامَ المِرآة أتدبَّرُ ملامحَ وجهي الخَشِن، الذي نسيتُ شكلَه في خِضَم أحزاني وهمومي، فرأيتُ بعضَ الشُّعيرات في لحيتي ورأسي وقد غزاها هذا الضَّيفُ الثَّقيل الذي يُقال له: "الشَّيب"، والذي لم أكن متوقِّعًا أن يزورني غير محتشمٍ وأنا في عنفوان الشَّباب إن صحَّ هذا التَّعبير، فقلتُ مخاطِبًا نفسي الأمَّارة بالسوء: ويحكِ يا نفسُ! فهذا نذير جاءني على غفلة من أيامي الهاربة نحو الغواية، الفارَّة من جنب الله الذي فرَّطنا فيه رَدَحًا من الزَّمان، جاء ليذكَّرني بتقدُّمي في السِّن، والسَّير صوبَ الأربعين التي لم يبقَ بيني وبينها إلا خمس سنوات وبضعة أشهر على أكثر تقدير، ثمَّ يبدأ العدُّ التَّنازلي الذي سيتَّجه بي حتمًا نحو حُفرتي التي تنتظرُ عظامي المهترئة بصبْرٍ فارغ! ويا لها من دنيا! البارحة فقط كنتُ أرتع في أحضان العشرة والعشرين، وهأنذا أنظر إلى أيَّام الصِّبا وبداية الشَّباب المأسوف عليها كحلم حلَّقَ فوق رأس أحدنا وهو في نوم هادئ عميق!

البحر

قادني البحرُ إلى التَّفكير في أمور أكبر من أن يستوعبها عقلي الصَّغير الرَّازح تحت وطأة التَّعب والجمود، وقال لي مؤكِّدًا: وما أنتَ في هذه الحياة إلا كقَشَّة في فلاة، أو قطرة في نهر جارٍ على الدَّوام، أو كحبَّة رمْلٍ من رمال شواطئ الله، فلا تغترَّ بنفسك؛ فإنَّك لستَ مركزًا للكون، ولا منبعًا للحياة، ومهما علا شأنك، وارتفع ذكرُك، فإنَّك ستظلُّ رقمًا في الزِّحام لا يأبه لك أحد في حياتك، ولا يشعر بوجودك غير أناس يُعدُّون على رؤوس الأصابع، وعند موتك سترحل في صمت مخلِّدًا وراءَك ذكريات قاتمة مسربلة بالذُّنوب والمعاصي تقضُّ مضجعَ أهلك وجيرانك الأقربين، فاهتبِل الفرصةَ واسجد واقتربْ؛ لعلَّ الله يرفع لك ذكرَك، ويشرح لك صدرك، وتعيش حياةً مطمئنة عنده في الخالدين!

شَجن !

أمرّ بأيام قاسية أقسى من السّنوات الأربع التي قضاها إلياس في الجبل وحيدًا في رواية الأشجار واغتيال مرزوق، قد تكون هذه الأمورُ تافهةً، هذه التي تأخذ بتلابيب قلبي وتجعل الدّنيا في عينيَّ سوداءَ كظلام كثيف، ولكنّها تبدو لي كجبل توبقال يجثم على صدري الضّعيف، من يراني فعلًا يظنّني على خير وسلام وأنا أقف بصمود كشجرة بلوط طاعنة في السّن، راسمًا على محيّاي ابتسامة تافهة قد تسرّ من ينظر إليّ ولكن لو اطّلع على أعماقي لولّى فرارًا ولمُلّئَ رُعبًا وحزنًا.

بوْح

عندما زُرتُ البحرَ آخرَ مرّة وجدتُه يغتسل بزرقة السّماء فَرِحًا كأنّه طفل يرى وجهَه في المرآة لأوّل مرّة؛ فاتخذت لي مكانًا قصيًّا بين الصّخور النّاتئة، فأرسلَ في طلبي مع بعض الأمواج العاتية لتداعبَ أحزاني، وتعبثَ بهدوئي، وتثيرَ في قلبي بعض الشّجون الغامضة التي تلفّني منذ زمن ولادة الحب في قلبي الكسير وتفكيري العسير، وطيور النّورس حينها تحلّق بغضب في الأفق كأنّها غير راضية عن قساوة البشر واضطراباتهم النّفسية !

بيني وبين نفسي!

جلستُ البارحةَ إلى نفسي تحتَ ضوء القمر بعدما تقدّمَ الليل ونامتِ الحياةُ وسكنتِ الأرواح، تحدّثنا طويلًا وتعاتبنا كثيرًا.. فوجدتها شديدةَ المِراسِ عَبُوسًا، وألِفَتْني ظلومًا جهولًا. ومما قالته لي قبلَ انصرافي عنها واستسلامي لنوم عميق: كن حذرًا يا ربيع وأنت تروم فِطامي في هذه السّن فما هكذا توردُ الإبل يا صاح؛ فرويدًا رويدًا حتى أنقادَ للحق المرّ الذي تصبو إليه والاستقامةِ الدائمة التي تنشدُها، ولا تعجلْ عليّ فإنَّ لي من الضَّعْف الذي ورثته عن مجتمعك هذا المتهالك الأثيم ما قد علِمْتَ، وعاملني بتدرّج وارْفُقْ بي، ولك في آيات الله في المخمورين خيرُ عِبرة حيث التّدرجُ والرّحمةُ والحكمة. وليكن منك على ذُكْرٍ حديثُ المصطفى ﷺ: "ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نُزِع من شيء إلّا شانه"، وقولُ الشاعر:

والنّفس كالطفلِ إن تهملْه شبّ على ... حبّ الرّضاعِ وإنْ تَفْطِمْهُ ينفطمِ

فتبّسمت في غير ارتياح، ثمّ شربتُ ماءً زلالًا، والتحفتُ بأحلامي فوقَ سرير رغباتي وأمنياتي وآمالي التي أعيش في أحضانها منذ عقود، مردّدًا: اللهمَّ أسلمتُ نفسي إليكَ، وفوّضتُ أمري إليك، ووجّهت وجهي إليك، وألجأتُ ظهري إليك، رغبةً ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منكَ إلّا إليك، آمنتُ بكتابك الذي أنزلت، وبنبيّك الذي أرسلت.!

زائرٌ ثقيل ! !

نظرتُ إلى المرآة صباحَ هذا اليوم، فكدتُ أنكر نفسي، بعدما رأيت تلك الشعيرات البيضاء تتناسل بين منعرجات لحيتي في غير خوف ولا حياء، فحاولت البحثَ عن ملامح طفولتي الغاربة، لعلّي أجد لها أثرًا بين تجاعيد الزّمن، ولكن عبثًا.. ذهبتِ البراءة، ورحلتِ الطّفولة، وحلّ مكانهما رجل أحمل اسمه ورسمه ولكن لا علاقة لي به، يقال إنّه ربيع وما إخاله إلّا خريفًا عاصفًا جاء ليكمل مأساة الإنسان المُعذّب على هذه الأرض، ثمّ بعد برهة قصيرة ابتسمتُ لمرآتي. نعم ابتسمتُ ساخرًا منّي حين تذكرتُ قولَ ذلك الحكيم، الذي قيل له حدّثنا عن الحياة؛ فقال: الإنسان فيها وُلِدَ وتألّم ومات.!

كنتُ متشدّدًا

كنت قبل عشر سنوات ونيّف منغلقًا، لا أقرأ من الكتب إلّا ما يوافق توجّهي "المُتشدّد" ولا أسمع إلا ما يرضي مشايخ طائفتي، ويوافق هوى في أفئدتهم، أنظر إلى الآخر نظرة سلبية قاتمة لا تسرّني الآن ولا ينبغي لها أن تسرّني، عكفتُ على كتبٍ تكرّس للجهل أكثر مما تحرص على رفعه من نفوس القرّاء، تعلّمت من هذه الكتب أن أكون مِعول هدم، ببغاءً يردّد ما لا يفهمه، المهم عندي أنّ الشّيخ فلانًا قاله، والعالم علّانًا أفتى به، كنت أظنّهم الموقّعين عن الله، المُتكلّمين باسمه، ومن ثمّ فعصيانهم عصيان للذّات الإلهية، والخروج عن منهجهم خروج من الملّة، وارتداد عن الدّين، بل كنت- والله- أكفّر المخالف لي ولهم في المسائل الفرعية التي لا تستحقّ النّقاشَ أصلًا. وحين كنتُ أتجرّأ على قراءة بعض الكتب الفكرية التي حرّمَ علينا قراءتها مشايخُ طريقتنا؛ كنت أستحيي كما لو أنّني أتيت شيئًا عظيمًا من المنكر. ومرّة ذكرت لصديق عزيز "إمام مسجد" أنّني أخالفُ الشيخَ الفلاني في بعض مسائله، مدّ إليَّ يده وقال: هذا فِراقُ بيني وبينك.

وكنتُ أرى بعضَ الإخوة الذين فتح الله عليهم قبلي يحملون كتبًا تحتَ جلابيبهم وقمصانهم بحذر شديد، يتداولونها بينهم بتوجس؛ مخافةَ

أن نراهم وننقل عنهم ذلك إلى أصدقائنا ومشايخنا، فتكون الكارثة حين يطلقون عليهم أسماء وألقابًا خطيرة تهدّد راحتهم وتجعل السّلطات تتبّع أثرهم. وبعد أن تجاوزت هذه المرحلةَ وأصبحت أكثر انفتاحًا على كتب الفكر والأدب والفلسفة بقيتْ في تفكيري الكثير من الرّواسب، لدرجة أنّني لا أقوى أن أنقل نصًّا رائعًا لنزار قباني وأقول إنّه لنزار، أو أن أثنيَ على فكرة لنجيب محفوظ وأقول إنّها لمحفوظ، بل- والله- كنت إلى عهد قريب أستحيي أن أنقل عن الجاحظ، بسبب ما لُقّنته في صغري أنّه معتزلي ضالّ لا يجوز الاقتراب منه. أمّا الآن بحمد الله وتوفيقه فقد أصبحت حرًّا طليقًا بعدما تخلّصت من تلك الأوثان القابعة في داخلي باسم الدّين، وصرت أقرأ كلّ شيء حتّى كتب الزّنادقة، فاتّسعت الرّؤية وازداد العقل نضجًا، كما ازداد رصيدي المعرفي والثّقافي. وأصبحت حجّتي أقوى في الرّد على المخالف، وأقصد بالمخالف: العلماني والحداثي والملحد والزّنديق والليبرالي، أمّا إخواني المسلمون فأنا أحسن بهم الظّن ما أمكنني الإحسان، وأدعو لضالهم ولي بالهداية. وكنت كما قال الدّكتور مصطفى محمود: في حاجةٍ إلى قراءة الفلسفة، الشعر، القصص؛ في حاجه إلى فتح ذهني على الشّرق والغرب ليحصل على التهوية الضرورية فلا يتعفّن. وكما قال إدريس الخوري: فدعني أتلذّذ بكتابةٍ جميلةٍ، قصيدة أو قصّة أو رواية، واترك الأيديولوجيا جانبًا.

داعـــش

رأيتُ فيما يرى النّائم أنّ رجلًا من رجالات الخلف الدّاعشيين تسلّل إلى بيتي بعد منتصف اللّيل وأنا أطالع بعضَ الكتب التي اقتنيتها حديثًا، له لحية كثّة تملأ كلّ جوانب وجهه الأسمر، ويرتدي لباسًا أسودَ يبعث على الخوف والكآبة، وينتعل حذاءً طويلًا كأحذية العسكر، يحمل في يمينه سيفًا يمانيًّا لامعًا، وفي يساره رأسَ أخته التي وجدَ في حقيبتها اليدوية حمالات صدر، الشيء الذي جعله يحكم بِردّتها واستباحة دمها؛ لأنّ في نيتها أن تفتن الرّجال في المجتمع المسلم المحافظ على تعاليم دينه. ارتعدت فرائصي من الخوف، وملأني الهلعُ، من هذا المشهد الرّهيب، خاطبني بلهجة لا رحمة فيها قائلًا: انهض معنا يا هذا، فقد بلغنا أنّك تسبّ ديننا، وتسفّه أحلامنا، وتريد بقلمك أن تفرّق جماعتنا، وقد كلّفنا أميرنا- نصره الله ونضّر وجهه- أن نأتيه برأسك قبل أن يستفحل أمرك، وتصبح أشدّ علينا من وقع الحسام المهنّد، وأنت لك من الأتباع ما لا نستطيع له حصرًا. فقلت له: ولكنني أؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر، وأحافظ على جميع أوامر ربي، وأجتنب نواهيه، فهل يجوز لك أن تقتل رجلًا يقول ربي الله؟ فماذا تفعل بلا إله إلا الله إذا حججتك بها يوم القيامة؟ فإن كان ذبحي سيرتفع به

الإسلام درجة فافعل ما تؤمر ولا تبالِ ستجدني إن شاء الله من الصّابرين، وإن كنت بذبحي ستسيء للإسلام والمسلمين، فإنّي ناصحك أن تخلّي سبيلي؛ لأنّ الله سينتقم منك ومن أميرك لا محالة، فاستشاط غضبًا لكلامي وأرغى وأزبد وصقصق ودمدم، وأخذني من شعري كجارية مغلوبة على أمرها من جواري القرون الوسطى، وهو يكبّر بصوت كأنّه الرّعد حتّى خيّل لأهل بيتي أنّ أذان الفجر قد رُفع في سماء المدينة، فقاموا فزعين يدفعون عن أعينهم النّعاس. ويا للهول فقد صرخت زوجتي صرخة خرّ لها قلبي صعقًا وهي تراني بين يدي هذا الوحش الكاسر الذي يريد أن يذبحني باسم الإسلام. ولا أدري بعد ذلك ماذا كان مني وماذا كان منه؛ لأنّني استيقظت قبل أن أنتهي من هذا الكابوس الذي جعلني أتصبّب عرقًا وخوفًا وحزنًا. وغالب الظّن أنّه ذبحني فعلًا وذهب برأسي إلى أرض العراق لأكون رقمًا في زحام الذّبح، وعِبرة لغيري من المعادين لهؤلاء المجرمين القتلة !

حكمة عجوز

جَلستُ إلى امرأة طاعنة في السِّن صباحَ يوم عيد الأضحى لبضع دقائق، فوجدتها ككتاب مخطوط من كتب تاريخ المغرب القديم، سبحان من وهبها نِعمة الذَّاكرة، وقوَّة البصر وهي في هذه السِّن، بل لها عقل قد لا نجده عندَ أدعياء الثَّقافة، قالتْ عن الموت ما مفاده: أجمل ما في الموت أنَّه لا يحابي أحدًا، ولا يقبل رشوة، ولا يفني الفقير دون الغنيِّ، أو المرأة دونَ الرَّجلِ، أو الصغير دون الكبير، وهذا من أكبر نعَمِ الله علينا، ولو أنّ الموت لا يدرك إلا الفقراء من أمثالنا يا ولدي، لضقنا بذلك ذرعًا، ولتمزَّقنا غيظًا وألـمًا، ولكنَّه سبحانه أرحم الرَّاحمين، وأعدل العادلين!

فقلت لها: صدقتِ يا أمِّي، بارك الله في عمرك، ثمَّ انصرفتُ عنها بعدما قبَّلت يدها، وأنا منشرِح الصَّدر، مطمئن القلب، وكأنَّني انتهيت من قراءة المجلد رقم "11" من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية!

المُعيدي

بعض الأصدقاء الافتراضيين حين ألتقيهم على أرض الواقع أشعر بأعينهم تكاد تخترقُ وجهي وشكلي ولباسي، مستغربين أنّني لا أختلف عن بقية النّاس في شيء، لا أحمل فوق شفتيّ شاربًا كثًّا مهملًا، ولا على رأسي شعرًا منفوشًا يجاوز الأذنين، ولا أرتدي أثوابًا تحتاج إلى تنظيف وتسريح، ولا أنتعل حذاءً درويشًا كما اعتادوا أن يروا المفكّرين والكتّاب والأدباء والشّعراء الذين- في اعتقادهم- ليس لهم الوقت حتّى لحكّ رؤوسهم المتّسخة. بل يرونني عاديًّا، عليّ قميص وسروال أنيقان يَلُفان جسدي الضّامر، وقامتي القصيرة مع حذاء رياضي غير مبالغ في ألوانه!.. وقبل أيّام كنت في مطعم شعبي في مدينتي آكل شيئًا أطرد به الجوع الذي هجم عليّ بعد صلاة المغرب. وبعد الانتهاء وقفت أمامي فتاة صغيرة دون العشرين من عمرها، ألقت عليّ تحية مؤدّبة وسؤالًا مفاده: هل أنت الأستاذ ربيع السملالي؟ فأجبتها بلطف: كأنّه هو!. فقالت وعيناها تبحثان عن شيء قد يميّزني عن أبناء الشّعب: أهلًا بك أستاذي، فأنا من أشدّ المعجبات بقلمك وكتاباتك التي تحرّضنا على حبّ اللّغة العربية والقراءة! فشكرتها وسألتها عن حالها ودراستها، ثم انصرفت إلى حال سبيلي ورأسي يعجّ بهذا المثل: أن تسمع بالمُعيدي خير من أن تراه !

فضول

جلسَ إليَّ صديق حديثُ عهد بمعرفتي في مقهى كنت أخلو فيه بنفسي كلَّ مساء للتَّأمل والكتابة، فعرضَ عليَّ "سيجارة" ونحن نتجاذب أطرافَ بعض الأحاديث في الأدب والفِكر، فاعتذرت إليهِ قائلًا: عفوًا، لا أدخِّن ولا أحبُّ رائحةَ التَّدخين، فقال مستغربًا فاغرًا فاه: لأوَّل مرَّة أرى أديبًا لا يدخِّنُ! فتبَسَّمتُ ضاحكًا من قوله بل من مبالغته، ثمَّ قلت:

أولا أنا لم أبلغ بعدُ مرتبةَ الأُدباء بالمعنى الصَّحيح لهذا اللَّقب، وإنَّما أنا صبيٌّ ما زالَ يحبُو على بساط الأدب لعلَّه يصِلُ يومًا إلى ما وصل إليه الأدباء، ثانيًا: لا أدخِّن لثلاثة أسباب؛ الأوَّل أنَّني من شدَّة ولوعي بالأدب وشغفي الشَّديد به لا أفعل ذلك؛ لأنَّ التّدخينَ مرض فتَّاك وموت بطيء ولا أحبُّ أن أموتَ قبل أن أستوفيَ حظِّي ومتعتي منه!

والسَّبب الثاني: أنَّ ثمن علبتين من السجائر قد أشتري به كتابًا في كلِّ يومين، ولستُ من الغباء بحيث أقدِّم الخبيثَ على الطَّيِّب.

والثالث: أنَّ شربه حرام كما لا يخفاكَ. هكذا أفكِّر أنا فاعذُرني يا صديقي! فابتسم بعدما أعدم "سيجارته" في المنفضة التي أمامه واحتسى

ما تبقَّى من قهوته السَّوداء ثمَّ قال: غلبتَني بمنطقك يا ابنَ السَّملالي! ثمَّ أدارَ دفَّة الحديث قائلًا:

ماذا تجني من وراء هذه الكتابات التي تنشر في الصُّحف والمجلات والمواقع والمنتديات؟ فأجبته بعدما شعرت أنَّه يفكِّر بحسٍّ مادِّي كأغلب العرب المُعاصرين: إنَّني يا صديقي أستفيد همَّة عالية وعزيمة قوية تدفعني دفعًا للمُضي قدُمًا نحو عالم الكتابة الأدبية النثرية الهادفة التي اخترتها لنفسي أو اختارتها لي نفسي، فعندما أعثر على اسمي مكتوبًا في بطن مجلة من هذه المجلات التي يُشار إليها بالبنان في العالم العربي، أو في جريدة من الجرائد السيَّارة التي يذكرها النَّاس بخير أو في موقع من المواقع الهادفة المحترمة؛ أجد متعة لا تُقاوَم، وسعادة أفضل عندي من حُمْرِ النَّعَم، فالمال قد تجنيه من أيِّ وسيلة من هذه الوسائل المتاحة في عالم التجارة أو غيرها، لكن أن تعبِّر عن رأيك بمقالة، أو قصَّة قصيرة، أو قصيدة، ثمَّ تجد بعد ذلك من ينشر لك راضيًا مسرورًا، فهذا واللهِ ما تَنقطِع دونه الأنفاس حبورًا وانتشاءً، بل تُضرب أعناق الإبل في سبيل الوصول إلى هذا المستوى بحيث تُصبح ذا شأن ورأي تُذيعه في النَّاس وبين القرَّاء، وقد كنت قبلَ ذلك خاملَ الذِّكر جامدًا لا تستطيع أن تقول، ولا تجد من يسمع ما تقول، ثمَّ فوقَ هذا كلِّه هناك رضا الله الذي عنده الجزاء الأوفى لكلِّ عمل يكون خالصًا لوجهه، فهل أزيدك بيانًا وتَبيُّنًا أم أصْمُتُ؟ فقال مبتسمًا: حسبُك يا صديقي فقد ألقمتَني حجرًا، وتركتني أذوب في خجلي كفتاة حَيْرَى في خِدرها!

بيني وبين ضرسي!

زارني قبلَ أيَّام ضِرس مسوَّس بعدما تقدَّم بي الليل ونامت الحياة من حولي وأخذتُ مضجعي ناشدًا الراحة والهدوء، فقال لي: أهلًا بالربيع، فقد جئتُك وأنا في خريف حياتي بعدما أسرع إليَّ الهرم؛ لا لأنغصّ عليك ليلك هذا الهادئ، ولا لأجعلك تُكابد لحيظات العذاب بألمي هذا الظالم، ولكن لأذكِّركَ بأيام شبابي وعِزِّي حين كنتُ أقضم لك ما شئتَ وشاء لك الهوى من المأكولات الشهيَّة والفواكه اليانعة، ولكن للأسف لم تعتنِ بي كما ينبغي حتى صرتُ إلى ما صرتُ إليه الآن، المهم رجائي عندك أن تعتني بأصدقائي الضروس عن طريق نزْعي من بينهم بعدما فقدت الأمَلَ في ترميمي؛ لكي لا أجني عليهم كما جنتْ على قومها براقش بمرضي وتسوُّسي، الذي زادك رهقًا، وقد يزيدهم تعبًا هم في غنى عنه!

فأرجوك أرجوك، أحسِنْ مثواي ولا تَتْرك ألَم ليلة واحدة يؤثِّر فيك؛ فتسبني وتشتمني وتنسى ما أسديتُ لك من خدمات في ظِلِّ ثلاثين سنة ونيِّف! الوداع أيها الربيع!

ميلاد الربيع

في مثل هذه الأيَّام من شهر يناير سنة 1400هـ، حيثُ الرَّعد والبرقُ والمطرُ الغزير، خرجَ للوجود طفل كئيب القسمات، سليم الجسم، قمحيُّ اللون، كثير البكاء، غير راضٍ عن عالمه الجديد الذي صافحته رياحه الهوجاء، وتلقته ببردها القارس، كان أبوه غائبًا عن البيت، وأمُّه في جمع من نساء الحيِّ تكابد ألم الولادة في صمْتٍ وصبر جميل ورثته عن أمِّها الحنون؛ لذلك ألهمها الله بعد التبشير بولد "وهو البكر لديها" أن تسميه ربيعًا في قساوة الشِّتاء وشظف العيش ومعاناة الأيام؛ لعلَّه يكون ربيعَ أفراحها، وماسحَ ضيقها، ودافع أزماتها.. ولا أدري الآن وقد بلغتُ من الكِبَر مبلغَ الرِّجال هل كنت كما أرادتني أم خيَّبتُ ظنَّها، وضيَّعت آمالها، في متاهات هذه الكتب المتراكمة التي تَحُولُ بيني وبينها في كثير من الأحيان؟!

اسمي

سألتُ أمّي مرّة كيفَ خطر لك أن تسمّيني ربيعًا، وأنتِ تعيشين في قبيلة ليسَ لها من أناقة الأسماء ما يعينك على تقليدها، ثمّ أنت امرأة لم تزوري المدرسة في يوم من أيّامك؟ فابتسمت وقالت: كنّا نشاهد فيلمًا عربيًّا عند إحدى الجارات، فطرقَ سمعي هذا الاسم الجميل فانفلتت منّي ابتسامة الفرح، ثمّ قلت لصديقة بجانبي إن كان هذا الذي في بطني ولدًا سأسمّيه ربيعًا، فقد أعجبني وسرّني وألهاني عن متابعة الفيلم.. ثمّ رفعت عيني إلى السّماء ودعوت الله بإخلاص أن يرزقني إيّاك بعد إلهامٍ وابتسام.!

الجمال الآسر

أعشقُ الفنَّ، وأتذوقه، ويأسرني الجمال رغم الخشونة التي ورثتها عن الكتب الصفراء، وحين أرى أنثى بارعة الجمال في عرض الطّريق تتعثر قدماي؛ لذلك أتجنّب السّفر إلى المدن التي تكثر فيها الحسناوات والشّقراوات؛ حتّى لا أسقط صريع الهوى، وضحية الجمال الذي لا أستطيع له لمسًا !

همْس

وفي اللّيل يصيرُ للحياة طعمُ الهروب إلى الرّوح السّاكنة في أعماقك، تتحدّثُ إليها عن أشواقك الحارقة، وتتحدّث إليك عن أحلامها وحكاياتها التي عنوانها أنت. في اللّيل يُرفعُ السّتارُ عن شرودها، عن تفكيرها، عن صمتها، وعن أحلامها التي كنت سببًا في خلقها وبعثرتها بين يدي القضاء والقدر، تبتسم وتسأل وتجيب وتعاند وتضحك وتبكي وتقول وتسكت وتضع يدها على خدّها، ثمّ ترسلها إلى جنبها، تسابقُ عقارب الزّمن قبل أن يباغتها أجلُ النّهاية. نهاية هذا اللّقاء المسروق من جيوب ليل مُدْلَهِم إذا أخرج أحدهما يده من بين ظلمته لا يكاد يراها، جُعْلتُ فداك أيّها اللّيل، أَشفقْ على من طلب الجوار تحت عباءتك السّوداء المرقّعة بالنّجوم، وكن صامتًا كما أنتَ. لا تفشِ لهم سرًّا ولا تُذِعْ لهم خبرًا، فما عهدتك إلّا سِكّيتًا صموتًا هادئًا !

اعتراف

حين أرى زوجي أمّ عبد الرّحمن منهمكة في الطّبخ أو في تنظيف البيت، وفي مسح الغبار عن هذه المجلّدات التي تملأ عليها البيت، وهي فوق هذا لها ولدان وبنت تقوم على شؤونهم كلّ يوم كعسكري في جبهة من جبهات العدوّ لا يهدأ له بال ولا يقر له قرار؛ حين أراها على هذه الحال أشعر بالحرَج الشديد، لاسيما حين أتذكّر أباها بجسده النّحيف وهو يقول لي يوم عرسنا: ابنتي أمانة عندك يا ربيع، فأحسن إليها ما وسعك الإحسان! فأندم ندامةَ الفرزدق حين راحت مطلّقة منه نُوار! وأتحسر على عدم الإحسان إليها كما ينبغي أن يكون الإحسان وكمّا خمّن والدها حين زوّجها لشابّ شغله الشّاغل كتاب الله وسنّة نبيّه دراسة وحفظًا، ومستحيل أن يظلمها أو يشطط عليها!!، فأحاول شكرها وإرضاءها على كلّ ما تقوم به في سبيل أن يكون هذا العشّ الدّافئ على ما يرام!. فجزاها الله عنّي وعن أولادها خير الجزاء.

الطّبعُ سرّاق

ليسَ من عادتي أن أتركَ أبنائي يلعبونَ خارجَ الدّار إلّا لضرورة، وقبلَ أيّام طلبَ إليَّ ابني عبد الرّحمن البالغ من العمر عشر سنوات ونيّف؛ أن أتركَه يلعبُ لبعض الوقت مع أطفال في مثل سنّه في حيّ مجاور لحيّنا، وألحّ عليّ في ذلك ما وسعه الإلحاح، حتّى استحييت وسمحت له بذلك بعدما أكّدت عليه أن يعود بعدَ ساعة، فانطلقَ لا يلوي على شيء، والفرَحُ ملء حناياه كرجل سجين بُشّر بحرّيته. وفي المساء حينَ كنّا متحلّقين حول مائدة العَشاء رأيتُ على وجهه سحابة من حزن تشبه إلى حدّ كبير ذلك الغيظ الذي يساور الإنسان الذي يشعر بالظّلم والجوْر في وطن غير وطنه!، فقلتُ له مداعبًا: ما بالك تلتزم الصّمتَ وتلوذ به على غير عادتك، وتنظر إليّ شَزْرًا وكأنَّني الشّيطان أو مارد من الجان! فقالَ بلغة المحتجّ: إنّ الأطفالَ الذين ذهبت للعب معهم يملكون هواتفَ ذكيّةً لم أر مثلها من قبل، أليسَ من حقّي أن يكون لي هاتف مثلهم يا أبي! فرشقته بنظرة ذات معنى، ثمّ قلت له: الحمدُ لله أنَّك رأيتهم يحملون هواتفَ ذكية، ولم ترَهم يحملون علبَ سجائر فأخشى عليك أن تسيرَ سيرتَهم، وتقلّدهم تقليدًا لا علم لك بعواقبه، فكلّ ما تراه يا بنيّ في هذه المجتمعات أصله "التقليد الأعمى"

للغير، وهذا ما يمنعني من السّماح لكم بالخروج دومًا قبلَ أن تدركوا حقيقة هذه البِيئة السّيئة التي ستغرقون في لججها لا محالة لو تركت لكم الحبلَ على الغارب! وصدقَ ابن الجوزي الذي يقول في صيد خاطره: الطّبع سرّاق، يسرقُ من أهلِ زمانه!

حنين

أشعر بالحنين إلى بعض الأماكن التي لها ذكريات في أعماقي، بعضها قريب والبعض الآخر بعيد، أما القريبة فإنني أقوم بزيارتها بين الفينة والأخرى، ناشدًا ذلك الفرَح الذي اعتراني في وقت من أوقات عمري.

وأجمل هذه الذكريات على الإطلاق حين بُشِّرت بابني البكر عبد الرحمن؛ حيثُ السماءُ صافية، والشوارع خالية إلّا من دقّات قلبي وامتلاء مشاعري باضطراباتي، وأشجار البرتقال الواقفة بصمود كأنها تستعد للانحناء حبورًا بهذا المولود الذي سيكون سببَ سعادتي المتلاشية في سماء الأبد، لأول مرة في تاريخ البشرية سأكون أبًا، ويكون لي ابنٌ، وسأجرّب حنان الآباء ورحمتهم التي كنتُ قرأتُ عن بعضها في كتابات المنفلوطي وأنا دون العشرين، أزور المكان الذي خرج فيه عبد الرحمن إلى الوجود حينَ اغرورقت عيناي بدموع الانبهار والسّرور والانفعالات الإنسانية التي لا أستطيع لها وصفًا، إني لأجد ريحَه تلك الطيّبة المتسرِّبة في كِياني ووِجْداني، أجلس على عتبة الذِّكرى متأملًا كل لحظة من تلك اللحظات وهو بين يديَّ يوزع بكاءَه على قلوبنا المتعطشة للقائه الأول من نوعه!

باريس

حينَ كنتُ في العشرينَ من عمري كانت إحدى أمنياتي أن أزورَ العاصمة الفرنسية باريس، عاصمة الشّعراء والأدباء والفنّانين، عاصمة الخيال والجمال والرّومانسية التي تهفو إليها نفوس الكتّاب والمبدعين، اعتقادًا منّي أنّها المدينة الفاضلة التي كان يدندنُ حولها أفلاطون والفارابي، لكن هذه الأمنية قد تلاشت مع الوقت كما تتلاشى خصال المراهقة الصّاخبة، وها قد تجاوزت الثّلاثين من عمري بخمس سنوات فأصبحت هذه الأمنية لا تساوي عندي قُلامة ظفر، بل أصبحت لا أكره شيئًا من الدّول والعواصم كما أكره هذه البلاد الكارهة لديننا الحنيف ولنبينا الكريم "صلوات ربي وسلامه عليه" !

الكَون لا يتّسعُ لأحلامي

سألتني نفسي: ما هي أمنياتك يا ربيع؟!

فقلت لها: صراحة، لم تعد تستهويني الأمنيات؛ لأنّ الوطن الذي سأمارس فيه أمنياتي لا وجودَ له، ومن العبث أن أظلّ عاكفًا على ابتلاع الأوهام والأحلام التي لن تتحقّق ما دمنا في هذا العالم الظّالم أهلُه، فدعيني مدفونًا في أحضان هذه الكتب الصّفراء؛ حتّى يقضيَ الله أمرًا كانَ مفعولًا !

أسامة على سرير المرض

23 غشت 2015

أشرَقتْ شمسُ يومٍ جديد، لكن ابتسامتك يا أسامة أَبَتْ أن تُشرِق، بل ضباب هذا المرض الدَّاكن حال بينها وبين إشراقها، هذا الإشراق الذي يجعل يومي مترعًا بالخير والحبّ والجمال، صار معتّمًا وكأنّني في ظلمة حالكة السّواد. كلّ مصابيح أيّامي انطفأت بانطفاء وجهك الطّفولي الحبيب. فأرجوك عُد إليّ قبلَ أن يتوقّف هذا القلب عن الخفقان...!أبوك وحبيبك !

24 غشت 2015

كان لونُ وجهه أصفرَ وعيناه ذابلتين، وعلى شفتيه ابتسامة باهتة لا تغريك بإطالة النّظر إليه، حينَ رآني وقد انبثقتُ من باب الغرفة التي ينام فيها بالمستشفى اندفعت من فمه كلمة "أبي.. أبي" وكأنّ فرَجًا نزل من السّماء على رجل في صحراء قاحلة لا ماء فيها ولا شجر، عانقته، قبّلته، وشممت رائحته وكأنّي أراه لأوّل مرّة بعد طول غياب، يرفع عينيه إلى وجهي الحزين، ويمسك يدي بل يتشبّث بها وكأنّه يقول لي ابقَ معنا، ولا ترحل. أشار إليّ أنّه يريد أن يخرج، أخذته إلى دهليز المشفى الطّويل، تخلّص من يدي وانطلق راكضًا يبحث عن حرّيته التي قيّدها هذا المرض

المفاجئ. جلست أنظر إليه يشعر بالتّعب فيأتي إلى حضني يجلس مطمئنًا، يأخذ هاتفي، يعبث به باحثًا عن القطّ الشّقي الذي يردد صوته كببغاء، تأتي الممرضة تعلن عن انتهاء وقت الزّيارة، أقبّله بعنف أودّعه وهو يبكي يصرخ محتجًّا، أنطلق مسرعًا إلى الخارج منتظرًا نتائج التّحليلات..!

25 غشت 2015

نسمة صباحية باردة أطوي عليها جوانحي، مصدرها ابتسامتك المتعبة وكلماتك العذبة التي تنساب في أعماقي كالماء النّمير في يوم حرّ، ملامحك المتأصّلة في أعماقي لا تفارقني ليل نهار، ممتلئ أنا بك حدّ الهيام. رزقني الله حبّك من بين آلاف البشر، ليس لأنّك فلذّة كبدي؛ فلِي عبد الرحمن وهند- حفظكم الله جميعًا-، لكن أنتَ أنتَ فيك شيء يميّزك، شيء أستشعره في قلبي يشبه السعادة والفرح والحبور، لا، لا، بل أكثر من ذلك بكثير. أنت حبّ يمشي على أرضية قلبي بخطًى وئيدة مطمئنة راضية كلّ الرّضا. باختصار حبيبي الغالي أنت تجري في دمي جريًا لا أستطيع وصفه لعيّي وحَصَرِي وركاكة حرفي، لكن تأكّد أنّ حبّي لك لو وُزّع على أهل العداوة والبغضاء لوسعهم ولحوّل عداءَهم محبّة ووِدادًا.!

أتمّ الله شفاءك حبيبي أسامة؛ فبيتنا خالي الجوانبِ بلقعُ بدونك، فعدْ سريعًا ولا تخف فإنّكَ بأعيننا !

28 غشت 2015

وزّعْ ابتساماتك يا أسامة على قلوبنا التي أفجعها مرضك الذي ألزمك الفراش وسربلك بالألم، ارفع صراخك ما وسعك الصّراخ، وافعل في الكتب والهواتف والحواسيب ما شئت وشاءت لك الطّفولة؛ فلن تجد لك معاتبًا، فأنت أميرنا وطاعتنا لك واجبة في المنشط والمكره ولو كنتَ عبدًا حبشيًّا، لا يجوز الخروج على محبتك مهما فعلتَ. وقد اتّفق لك من الإعجاب والمحبة في قلوب محبّيك ما أبهرني، واجتمع فيك من القَبول ما تفرّق في غيرك، كلّ من يراك يحبّك حبًّا خالصًا سواءً في عالم الواقع أو الافتراض، والشّكر كلّ الشّكر لله الذي شفاك وأعادك إلينا سالمًا.

زفرات

29 **أكتوبر** 2014

رحمك الله يا جدتي بل يا والدتي الحنون، فإن موتك موت للدّفء الذي استشعرناه مذ فارق أبونا الحياة إذ كنت لأمي عونًا وسندًا على تربيتنا؛ وكنتِ لنا العصا التي نهشّ بها على أزماتنا الصعبة التي مررنا بها، إني لأرى وجهك الآن في وجه والدتي التي بكاؤها يفتك بقلبي وبقلب إخوتي فتكًا ذريعًا، وداعًا وداعًا يا أطيب الناس ويا أحب الناس إلى قلوبنا. رحمك الله وأكرم مثواك وإنا لله وإنا إليه راجعون.

30 **أكتوبر** 2014

كبرتُ في كنفك يا جدّتي، وعشت متقلّبًا في أحضانك، فلَم يحرمني الله من تلك اللّحظات الأخيرة التي كنتُ فيها بقربك وأنتِ تجودين بنفسك وتسلمين الرّوح لخالقك، وأنا ألقّنك "لا إلهَ إلّا الله" وعَبَراتي تنطلقُ مِدْرارًا من عينين أَلِفُوا النّظرَ إلى بهائك ثلاثينَ سنة ونيّف، بل امتدت يدُ الله الحانية إلى مراسم الدّفن وجعلتني من الّذين سيدخلونكِ إلى قبركِ الذي أسأل الله أن يكون لك روضة من رياض الجنّة.

30 أكتوبر 2014

حينَ انتهينا من دفنك يا جدّتي العزيزة، حدّثتني نفسي أن أوزّعَ بعضَ النّظراتِ على القبور التي توجد بقربك لكي أستطيع التّعرفَ عليك بسهولة عندَ زيارتك مرّة أخرى، فوقعتْ عيناي على قبر لسيّدة اسمها "حليمة شاكر" فاستبشرتُ خيرًا بهذا الفأل الحسن، وقلت: سبحان الله إنكِ فعلًا كانَ لكِ من الحِلم والشّكر ما يغبطكِ عليهما كلُّ إنسان عرفَك حقَّ المعرفة. فأسأل الحليمَ الشّكورَ أن يتغمّدكِ برحمته التي وسِعَتْ كلّ شيء.

31 أكتوبر 2014

صلّيتُ البارحة الفجرَ في محرابِك يا جدَّتي، وأحسستُ بخشوعٍ لا عهدَ لي به من قبل، تخيّلتك تصلّين بقربي وترفعين صوتك بالدّعاء لك ولأبنائك وأحفادك وللمُسلمين أجمعين كما كنتِ تفعلين دُبرَ كلّ صّلاة، ففاضت عيني بالدّموع وأنا أعيد شريط ذكرياتي معك، لا سيما حينَ كنتِ تطرقين عليّ باب الغرفة برفق وتقولين قد رُفع أذانُ الفجر يا ربيع وأنتَ مازلت نائمًا، سيبرد الماء الذي جهّزت لك، قُم يا بني لتدركَ الصّلاة مع الجماعة، لسان حالك: قُم أيّها الحالم فلا وقتَ لدينا للنّوم، سننام طويلًا طويلًا في حفرتنا الضّاحكة من تزاحم الأضداد بعد انتهاء أجلنا هذا القصير.

31 **أكتوبر** 2014

أعدُكِ يا جدّتي الحبيبة أن أخلّدَ ذِكْرَكِ في كتاب يبقى لنا وللأجيال القادمة نِبراسًا يُقتدى به، ففي سيرتك العَطِرَة وأخلاقك الطّيّبة ما يستحقّ التّسجيلَ، والإشادة والتّنويه؛ فقَد صحِبتك ثلاثين سنة فلمْ أرَ منكِ إلّا ما يَدعو إليه ديننا الحنيف، فلم تكوني مشركةً، ولا مضيّعةً لحقوق الله، ولا معتدية على حقوق العباد، ولا ثرثارة تُلقين الكلام على عواهنه، بل كنتِ صَمُوتَة لا تتكلّمين إلا لضرورة ليس لكِ منها بدّ، أمّا كرمك فقد شهد به القاصي والدّاني ولا يحتاج النّهار إلى دليل. رحمكِ الله رحمةً واسعة.

2 **نوفمبر** 2014

إنَّ هذا الحُزنَ يَستبدُّ بي يا جدّتي، أشعرُ بفراغ رهيبٍ في هذا البيت الذي كنتِ لنا فيه كالمصباح المُنير الذي نقرأ على ضوئه خريطةَ سُبلنا المتشعّبة في دنيا النّاس، إنّني أخرجُ من دارنا لعلّي أحدّث عنكِ النّفسَ خاليًا ولكن تأبى عيناي إلّا أن تفيض بالدّمع وأنا أتذكّر لحظاتِك الأخيرةَ حين كنتِ تجودين بنفسك وتقولين لوالدتي، لا تبكي يا ابنتي فإنّني مازلتُ معكم، فما بالكِ تبكين عليّ وأنا على قيد الحياة!. يا الله ما أصعبها من لحظات يا جدّتي لم أستطع بعد أن أستفيقَ من صدمتها، وكأنّني أرى الموتَ لأوّل مرّة في حياتي هذه الكئيبة، علمًا أنّني ابن من أبناء الموتى، وحفيد من أحفاد أهل القبور..!

3 نوفمبر 2014

قالتْ لي جدَّتي يومًا إنَّ الموتَ حقيقةٌ لا مجالَ للتَّشكيكِ فيها؛ فاعتقدتُها تمازحني لحداثَة سنِّي حينَها وكثرةِ جهلي بهذه الأمور؛ فقلتُ لها: وهل ستموتين أنتِ أيضًا وأبقى وحيدًا دون أن أجدَ من أنام بقربه ولا من يأخذ بيدي إلى المدرسة البعيدة عن بيتنا، فضحكتْ- رحمها الله- وقالتْ باطمئنان: لن أموتَ بإذن اللهِ حتّى تصبحَ رجلًا تستطيعُ أن تناولَني ما يلزمُني حين أصبح طريحةَ الفِراش!. فقبَّلتها ونِمت في حضنها متمسِّكًا بحياتي وحياتها فلم يوقظني إلا صراخُ الموتِ وهو ينزعُها منّي بالقوّة حين كنتُ سادرًا في غيِّ الثّلاثينات من عمري.!

4 نوفمبر 2014

في مثل هذه السّاعة من يوم الثّلاثاء الماضي كانَ لنا موعد مع الحزن والبكاء والصّراخ، حين لفظتْ جدّتي الحنون أنفاسها الأخيرة، واستسلمت لملك الموت الذي وقفَ عند رأسها قرابةَ ساعتين منتظرًا فرصة نزع الرّوح منها وإرجاعها إلى بارئها الرّحيم، كانت ليلة خطيرة لا أجد في قواميس العربية ألفاظًا تُعبّر عن اضطرابات تلك النّفوس الحائرة التّائهة، التي باغتها الموتُ في عقر دارها وأخذ منها "العزيزة" الشّجرة التي أثمرت كثيرًا وأعطت بغير حساب !

وكانت هذه الكلمات "التي تندكّ لها الجبال" في سماء الغرفة، تنطلق من أفواه بناتها، وزوجات أبنائها: الله يرحمك أمّي، الله يرحمك أمّي، المسامحة، المسامحة.!

5 **نوفمبر** 2014

كيفَ أستطيعُ نسيانَك وكلّ ما في الحياة يذكّرني بكِ، حتّى تلك التّفاصيل الصّغيرة التي لم أكن ألقي لها بالًا وأنت بيننا، أصبحتْ قِبلةَ اهتماماتي بك يا جدّتي الغالية. إنَّ رحيلك رحيل لبسمتي، لراحتي، لهدوئي، أمّا سعادتي فقد أصبحت مجردَ موجز تاريخي، وهيهات أن أسعدَ بعدما غيّبتك تلك الحُفرة التي بتّ أغبطها لأنّها ضمّت جسدًا كان طائعًا لله وهو في هذه الحياة الفانية، وكان مأوى لمن لا مأوى له من فروعك التي تفخر بكونك أصلَهم الأصيل. رحمكِ الله **!**

8 **نوفمبر** 2014

حزين أنا يا جدَّتي لفراقك..

وكئيبٌ أنا لرحيلك..

ضعيفٌ أنا بدونك..

دموع والدتي تزيدُ قلبي الكسير تعبًا، أحاول مواساتها وتذكيرها بأنَّ ما عندَ الله خيرٌ للأبرار، ولكن سرعانَ ما أسترسلُ معها في سكب العَبَرات، وأنسى كلّ ما كنت قرأته في باب الصّبر والتّجلد، وكأنّني طفل في العاشرة فقد أمّه على حين غرّة فلم يدر بعدها ما يصنع ولا كيفَ يتصرّف، فانزوَى في ركن قصّي يذرف دموعًا لا يعرفُ مصدرها جاءته بعفويّة براءته.

هذا الصّباح كان الجوُّ ماطرًا، والسّماء ملبّدة بغيوم داكنة كلون قلبي هذا الأسيف، ممّا زادني غمًّا وهمًّا وكأنّنا نصافح أول يوم من أيّام الفناء!

ذهبَ الأنيس، وذهبَ المواسي، وانطلقَ الكلّ إلى حال سبيله، وبقيتْ والدتي في ضيافة حزنها وذكرياتها معك، تجلس في مكانك المعتاد قبالةَ باب "الصّالون"، كما لو أنّها تنتظر أن تدخلي منه بعد فراغك من صلاتك. ياه، كم هو شديد الوطأة هذا الرّحيل يا جدّتي على قُلوبنا الضّعيفة، ليتني رحلتُ قبلكِ حتّى لا أنصهر في بوتقة هذا الألم الذي ينهك كل خليّة في خلاياي!

9 **نوفمبر** 2014

ما زلتُ أبحثُ عنّي بينَ متاهات الحُزن الذي غلّفَ حياتي هذه الضّيقة مذ فارقتنا جدّتِي الحنون إلى دار البقاء، مرَّ شهر وبضعة أيّام على رحيلها، والرّبيع الذي كُنتُه استحالَ خريفًا تتناثر بين أزقّة أيّامه أوراقُ الكآبة والضّيق، وتعلو سماءَه سُحُبٌ داكنة لا تريم، تجعل الدّنيا في ناظري مجرد خرافة جادت بها قريحة بعض العجائز في ظلمة شديدة السّواد، حتّى الكتب التي أدفن فيها وجهي هذه الأيام لم تزدني إلا حزنًا واكتئابًا، وقد وجدتني البارحة وقد اغرورقت عيناي بدموع لا معنى لها وأنا أقرأ رواية في المقهى الذي أستقرّ فيه ناشدًا الرّاحة والهدوء حينَ أيقظ قلمُ الكاتب في داخلي مشاعرَ الفقد وأحاسيسَ الذّكريات في الأيّام الخوالي، ووالدتي المسكينة

التي عاشت مصاحبة لجدّتي طوال حياتها أصبحت لا تصنع شيئًا في أيّامها القاسية إلا سكب العَبرات ودفع الزّفرات، والفرار من البيت فرارها من الشّجن؛ لأنّ كلّ شيء فيه يذكّرها بأمّها، فهي تَقضي سحابةَ أيّامها في بيت أختي لعلّها تجد ما يخفّف عنها لوعة الفراق، وألم الوداع الأبدي الذي لم يكن لها في الحسبان. وا أسفاه عليكِ يا جدّتي!

✍ ✍ ✍

النبض الثالث

مع الناس

السعادة

السعادة الحقيقية باختصار توجد في ابتسامة طفل بريء القسمات، في تغريدة عصفور حطّه القدرُ فوق شجرة مورقة تطلّ على نافذة غرفتك، في رسالة من صديق يخبرك فيها أنّه يحبّك في الله، في الجلوس إلى كتاب يعلّمك لغة القرآن، في دعوة صادقة من قلب بينك وبينه من البعد كما بين السّماء والأرض، في هدية متواضعة تقدّمها لزوجك مكافأة لها على ما تقوم به من جهاد في سبيل راحتك وراحة أبنائك، في النّظر كلّ صباح إلى وجه أمّك الصّبوح، في الذّهاب إلى زيارة مريض أنهكه التّعب، في موهبة الكتابة التي رُزقتَ حبّها. السعادة هي أن يرزقك الله محبّة سيد قطب فتجمع كلّ كتبه لتسهر معها الشهور والأيّام!

في ظلال القرآن

حين يحكمنا كتاب الله تعودُ الأطيارُ إلى أعشاشها موفورة راضية، وتلتئم جراح المكلومين بعد طول عناء وكمد خلّفهما حزن أو مرض أو فراق حبيب، تشعّ الابتسامة وضّاءة على وجوه أسيفة أنهكها التّفكير في مستقبل لم ينبثق بعد من شرنقة العدم، واجترار مآسي الماضي السّحيق، تنشر الشّمسُ سلطانها دافئة على أمّنا الأرض الرّازحة تحت برودة الأيّام وصقيع اللّيالي، يتسلّل شعاعُها الإلهي الرّحيم إلى بيوت أقعد أهلها التّشاؤمُ وسوء الظّن بالله وفقدان الثّقة، تتسرّب أخبارُ النّصر والتّمكين فيفرح المؤمنون بوعد الله الخالد، تنطلق زغاريد النّساء مدويّة في فضاء فسيح تجمّله زرقة السّماء وزقزقة العصافير ونسمات الأمل، ترحل غربان الكآبة عن دنيا الفرح مخلّفة وراءها نعيقًا وبؤسًا وعذابًا في قلوب الحيارى من الكافرين والمنافقين، الأشجار الباسقة تدفع عن نفسها غُبار السّنين وتشيع في الحياة اخضرارًا وروائحَ تعطّر أفئدة الصّبايا الحالمات بغد أفضل، نظرات الرّضا من عيون العجائز وكبار السّن من الرّجال تطيّب خواطرَ شباب يفور قوّة وحماسًا كانت مكسورة مخذولة لا تعرف معنًى للتفاؤل، مدينة فاضلة لا تقع عينك فيها على منكر ولا جهر بفسق، تنسحب المرأة الكاسية العارية إلى خدرها باحثة عن ثوب يستر جسدها المتهالك المتمرّد على الله ويحجبها عن عيون الذّئاب الجائعة.

اربَأ بنفسك!

قبلَ أيّام زرتُ صديقًا في مكتبتِهِ فوجدته يُجادل رجلًا يزعم أنَّ "أفلاطون" كان نبيًّا، وقبل أشهر أخبرني سائق سيارة أجرة أنّه سأل بعضَ الشّباب عن العشرة المبشرين بالجنّة فبدأ أحدهم بعمر المختار وانتهى بموسى بن نُصير، وقبل سنوات قالت زوجة أحد معارفي باندهاش بعدما سمعتنا نتحدّث عن موت النّبي ﷺ: وهل الرّسول ﷺ مات!! فاستغربتُ من سؤالها، ولمّا أخبرها زوجها ضاحكًا: نعم، مات من أكثر من عشرة قرون. قالت: ولِمَ إذًا كلّ هذا الاهتمام وإسبال اللّحية وتقصير الثّياب وقراءة الكتب و...، و...؟!

فهذا هو واقعنا للأسف، جهل وغباء وأميّة، سواء في أمور الدّين أو الدّنيا، وهذا هو السّبب الرّئيس الذي يجعل شبابَ المسلمين ينحرفون ويتّبعون كلّ ناعق، فليسَ لهم من العلم ما يدفعون به هذه الدّعاوى الإلحادية والبدعية والإباحية التي نجمَ قرنها واستفحل أمرها!

حصّنوا أنفسكم بالعلم الشّرعي يرحمكم الله، فوالله لا عذر لأحد أمام الله وقد أتاح لنا من العلم ما لم يُتحه لغيرنا، واجتنبوا القراءةَ لأهل الأهواء والشّبه، فقد علمتم أنّ القلوبَ ضعيفة والجهلَ لا يرحم صاحبه، والمنافقين لا يرقبون في المؤمنين إلًّا ولا ذِمّة!

قد هيّؤوكَ لأمر لو فُطِنتَ لهُ   فاربأ بنفسك أن تُرعى مع الهَمَل!

المداخلة والجامية!

يُسبلون لِحاهم، ويقصّرون ثيّابهم، ويَمتشقون أسْوِكَتَهم، ويتناولون بعد ذلك أعراضَ المسلمين بالثّلب والطّعن والسّب والشّتم بدعوى أنّهم حاملوا لواء الجَرح والتّعديل، يوالون الطّواغيت ويتكلّمون بضمير العَظَمة "نحنُ" بل بلغت بهم الوقاحة لدرجة أن يفرحوا لمرضِ الدّعاة وموتهم. هذه بعضُ مواصفات الفِرقة المارقة "المدخلية والجامية" فاحذرهم أخي المسلم، فجلوسك مع مسلم سِكّير خمّير أفضل من جلوسك مع قوم يدّعون أنَّهم يمتلكون الحقيقةَ المطلقة، وأنّهم الفرقة النّاجية التي ستدخل الجنّة وغيرهم سيرمي بهم ربّهم في نار جهنّم وبئس المصير، لسان حالهم: نحن أبناء الله وأحبّاؤه !

غباء الملاحدة

يَقرأ كثيرًا، ويظلّ يبحثُ آناءَ اللّيلِ وأطرافَ النّهار في بطون الكتب والمجلّدات، ينفق الغالي والنّفيس في سبيل الحصول على آخر طبعات الكتب وأفخرها، لا ليرفعَ عن نفسه الجهل، ولا ليُدافعَ عن عقيدة وتوحيد الأنبياء والرّسل، ولا لينفعَ شباب الإسلام الضّائعين في طرقات الغيّ، المنتظرين أمثاله من الأساتذة المحاضرين في أشهر الجامعات العربية. ولا ليؤلّف كتبًا تكون حجّة له أمام ربّه، ولكن.. ليرسّخ في نفسه الأمّارة بالسّوء عقيدة الإلحاد، باحثًا عن البراهين التي تجعله أكثر اقتناعًا أن لا إلهَ والحياة مادّة، يتركُ البحرَ وأمواجه المتلاطمة ويلوذ بالسّواقي والبِرَك والمستنقعات لعلّه يظفر بما يقوّي حجّته وهو يجادل أناسًا مؤمنين، يترك ابن حزم، والغزالي، وابن تيمية، وابن القيّم، وابن حَجَر، والشّوكاني، وسيّد قطب، ويذهب إلى زبالة الغرب ليستقي من ديكارت، وهيجل، وكانط، وكارل ماركس، ونيتشه. فوالله لرجل أعرابي يرعى أغنامًا في جبال نائية يعبد الله ولا يشرك به شيئًا، أفضل من هذا وأمثاله بمئات المرات، وإن كانت لهم من الألقاب والمسميات ما تضيق بها السّجلات والدّفاتر.!

أسماء مملكة في غير موضعها   كالهرّ يَحكي انتفاخًا صولةَ الأسد!

الولاء والبراء

إذا سمعتَ من يقول لك: تقبّل الآخر، والتّسامح، والدّين لله والوطن للجميع، وما إلى ذلك من هذه العبارات الجميلة الرّقيقة التي تشعرك بقمّة الإنسانية، فاعلم أنّه جاهل أو متجاهل، أو مغرض يبثّ السمّ في العسل؛ لأنّ هذه الكلمات تعني أن تقبل كلّ من هبّ ودبّ ودرج، الكافر الأصلي والكافر المُرتدّ والزّنديق، والمجوسي واليهودي والمنافق وما شئتَ من هذه الأنواع التي تحارب الله ورسوله باللّيل والنّهار، أمّا الآيات التي جاءت في الولاء والبراء، والأحاديث التي جاءت في الحبّ والبغض فلا قيمة لها عندهم، فهم يضربون بها عرض الحائط بدعوى المدنية والحضارة والتّقدم والعولمة، وعصر القرود والصّعود إلى جهنّم.. عفوًا إلى القمر.

ملاحظة- المعاملة بالتي هي أحسن مع الكافر غير الحربي لا شيء فيها، لكن في حدود، وانظروا لزاما كتاب الشيخ محماس الجلعود "الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية" في مجلدين، ففيه تفصيل قد لا تجدونه في غيره في باب الولاء والبراء، والله أعلم.

ما لهذا نزل القرآن!

عندنا في المغرب كثير من النّاسِ لا يفزعون إلى القرآن والاستماع إليه إلّا عندما تصيبهم مصيبة الموت، فتجد بيت العزاء تنبثق من نوافذه ترتيلات حزينة لقارئين مُمَيّزين كعبد الباسط عبد الصّمد، وصدّيق المنشاوي؛ لذلك يظنّ بعض السّابلة عندما يمرّون ببيت يُقرأ فيه القرآن بصوت مرتفع أنّه بيت عزاء اختطفَ الموتُ أحد أحبّتهم، فيردّدون بصمت وحزن "إنّا لله وإنّا إليه راجعون". وهذا اعتقاد فاسد، ابتلينا به في هذا المجتمع الجاهل، لدرجة التّشاؤم من كلام الله!

لحومٌ رخيصة

كم أشفِقُ على المرأة التي يُسعدها الثّناءُ على جسدها المكتنز، ولا تقيم وزنًا لجهلها وغبائها، وكم أشفق على الرّجل "إن صحّ هذا الوصف" الذي يبحثُ عن مثل هذه الأنثى العارية في شوارعنا العامّة والتي تفقّأتْ لحمًا، وطابتْ شحمًا، لتكون زوجةً للــحيوان الذي يسكنه، وأُمًّا للأولاد الذين سيفسدون في الأرض ولا يُصلحون!؛ لذلك نجد أنَّ أغلب النّساء العوانس في المجتمعات العربية من المثقفات اللواتي لهنّ اهتمام بالمضمون أكثر من الاهتمامِ بالقشرة الخارجية، فهنّ أحلاسُ بيوتِ آبائهنّ لا يبرحنها إلا لضرورة ليس لهنَّ منها بدّ، وهناك بعض الأمّهات يُخرجن بناتِهن للشوارع سافراتٍ بدعوى التّنزه والتّرفيه عن النّفس، لكنّ الحقيقة المرّة أنهنّ يَعرضن بناتهن كما يفعل الجزّارُ بلحم أغنامه وأبقاره/ ضعُفَ الخاطبُ والمخطوب، والله المستعان!

عادة سيّئة

في بعض المدن المغربية مازال أهل العريس يقفون ليلة دخلة ابنهم عند باب غرفته، منتظرين بقلوب واجفة افتراس ابنهم لهذه المسكينة التي تزوجها على سنّة الله ورسوله، ثمّ بعد ساعات يخرج لهم "الهِزَبَر" قطرات دم الفريسة في ثوب أبيض لترفعه النّساء فوق الرّؤوس وتنطلق به في الشّوارع والأزقة بالزّغاريد والغناء الشّعبي والأهازيج !

ماديّات

إذا أتاكم من ترضون عن جيبه وهاتفه الذّكي وسيارته الفارهة وملابسه الإفرنجية الأنيقة، وبيته الضّخم الواسع؛ فزوّجوه، وإن كان سكّيرًا خمّيرًا لا يحرّم حرامًا ولا يحلّل حلالًا! المهمّ هو أن يغتاظ الجيران ويموتوا حسدًا وحسرة، ويتكلّم النّاس أنّ بنت الحاج فلان كانت ذات حظّ عظيم.!

الحبّ في زمن الكوليرا

يسألونك: هل تزوجتَ زواجًا تقليديًّا، أم تزوّجتَ عن حبّ؟!

والمعنى: يقصدون بالتّقليدي أنّك نظرتَ إليها ونظرتْ إليك النّظرةَ الشّرعية ورضيَ كلّ واحد منكما بالآخر بعد السّؤال عن أخلاقكَ وأخلاقها كما هي سنّة الحبيب ﷺ، ويقصدون بالحبّ: هل كنت على علاقة محرّمة معها، تخرج معها وتخرج معك، وتداعبها وتداعبك، وتلاعبها وتلاعبك، وما خفيَ كانَ أعظم. وهي لا تحلّ لك "طبعًا" ثمّ تتزوّجان باسم الحبّ بعد سنوات من الضّياع اقتداءً بالأفلام الهندية والمصرية الكلاسيكية !

أمراض نفسية

ما الدّاعي للتّواصل باللّغة الفرنسية في بلد كلّ النّاس يتكلّمون فيه باللّغة العربية، أو بتعبير أدقّ "اللّهجة المحلية"؟ هل هذا من صميم الحضارة، أم من الأمراض النّفسية التي تعتري أصحاب القلوب المريضة الذين يشعرون بالنّقص والحِرمان، يحاولون جاهدين أن يظهروا بصورة تميّزهم عن غيرهم من المساكين من خلال هذه الرّطانة الأعجمية "زعموا". قلتُ لصديق قبل أيّام: أراك تكثرُ من مخاطبتي باللّغة الفرنسية هل تراني أجهل اللّغة العربية، أم أنّك أنتَ من تجهلها، أم أنّ اللّغة العربية غير كافية للتّواصل؟! فنظر إليّ باندهاش ولم يُحِر جوابًا. ثمّ قلت له: من الجيّد فعلًا أن نكون عالمين ببعض اللّغات لقراءة آداب الشّعوب، والاطّلاع على ثقافتهم، والتّواصل معهم عندما نكون في بلدانهم، أو حين نصادف أحدهم في بلادنا، ولكن أن نستعرض عضلات ألسنتنا على بعضنا فهذا ما تستقبحه النّفوس النّقية التي لا تبغي عن لغة القرآن بدلًا.

تناقُضات !

عندنا في المغرب إذا خاطبت العامّة باللّغة العربية الفصيحة اعتقدوك مجنونًا أو أنّ مسًّا قد أصاب من عقلك ما أصابَ، ومعهم الحقّ في ذلك إذ ليس من الحكمة أن تحدّث العامة بحديث الخاصة والعكس كذلك، لكن المصيبة التي تبعث على السخرية والانزعاج أنك إذا حدثّهم بلغة الاستعمار "الفرنسية" أو ببعض ألفاظها نظروا إليك بعين الإعجاب والتقدير والاحترام؛ لأنك مثقف ومتحضر وسبّاح ماهر في بحر هذه العلوم التي لم يستطيعوا لها تحصيلًا، وحظهم منها كحظ أبي جهل من الإسلام !

طفولة مُغتصبة

إحساسٌ قاهر يتملّكني، حين أرى طفلةً صغيرةَ الحجم والعمر، بريئةَ القلب والملامح تشتغل في بيت من بيوتات المترفين وذوي اليَسَار؛ لا تنام ولا تعرف أن تنامَ من شدّة التّعب الذي يستبدّ بجسمها النّحيل طولَ اليوم الذي تعمل فيه أعمالًا لو قُسمت على أهل الدّار لزادتهم رَهَقًا!، ولن يشعرَ بإحساسي إلّا من كانت له بنت أو ألقى السّمع وهو شهيد!. فرفقًا رفقًا أيّها الإنسان بهؤلاء الضّعفاء الذين كُتب عليهم أنْ يخرجوا إلى هذه الحياة غير مسلحين بأموال الآباء وحنان الأمهات! فإنّكَ لستَ مخلوقًا من ذهب ولا من فضّة وهم من طين لازب، فعامل النّاس بما تحبّ أن يعاملك به غيرُك، وارحم من في الأرض يرحمك من في السّماء، فإن أبيتَ إلّا الظّلم والجور فلا مناص من تذكيرك بما ذكره الأخباريون عن الوزير يحيى بن خالد البرمكي: قال له بعض بنيه وهم في السّجن والقيود: يا أبتِ، بعد الأمر والنّهي والنّعمة صِرنا إلى هذه الحال. فقال: يا بُني، دعوةُ مظلوم سَرتْ بليل ونحن عنها غافلون، ولم يغفل الله عنها !

ارحمونا !

مشكلتنا في النّظام والتّرتيب وضياع الوقت فيما لا يعود علينا بالنّفع، لو نظّمنا أنفسنا، ورتّبنا أمورنا كما يجب أن يكون النّظام والتّرتيب، وأعطينا للوقت ما يستحقه من قَداسة؛ لما صِرنا في هذه الحال التي نحن عليها اليومَ، فوضى عارمة، وتخبّط ارتجالي، وكلّ واحد منّا لا يقول إلّا نفسي نفسي، يأتيك ضيفٌ أو زائر على حين غفلة منك ضاربًا عرض الحائط مواعيدك وشؤونك وترتيباتك في بيتك، فيجدك مرتبكًا مضطربًا وغيرَ باشٍّ لقدومه ورؤية وجهه، لا لأنّك من بخلاء الجاحظ، أو لأنّك من قبيلة باهلة التي كان يُضرب بها المثلُ في اللّؤم، بل لأنّ بيتكَ لا يسرّ هذا الزّائر الثّقيل الذي جاء دون سابق إنذار، فأنتَ في عيشة غير راضية وسط فوضاك وعالمك الضّيّق، وتكره أن تقع عين زائرك هذا على ما لا تحبّ، وهذا مثل مصغّر وقِس عليه أمثلة كثيرة، وقد راسلتني قبلَ أيّام صبيّة في مقتبل العمر بعد منتصف اللّيل، وقد غفوتُ، لتقولَ لي: لم يضع ابنك عبد الرحمن "لايك" على تعليقي عليه، ووضعه على كلّ المعلّقين عنده، وأريد أن أعرف السّبب لو سمحتَ!!

كيف تحكمون! ؟

قبل أن تزور عيادة الطبيب تنظّف أسنانك جيّدًا حتى لا يرى الدكتور بقايا طعامك المتراكم في فمك المتداعي فينظر إليك نظرة استخفاف!.. وترتدي أجمل ما لديك استعدادًا للقاء خطيبتك وحبيبتك كارهًا أن تقع عينها على شيء ينفّرها منك، وتختار أحسن الألفاظ حين تخاطب إنسانًا ذا شأن وقيمة متخللًا بلسانك تخلل البقرة، وتكثر من النّظر في عِطْفَيك قبل انصرافك لحفلة من حفلات بني قومك وعشيرتك زهوًا وافتخارًا، وهكذا في سلسلة ليس من الحكمة تَعدادها، لكن حين تكون ذاهبًا إلى بيت ربك لا تبالي برائحة البصل والثوم والجوارب والسجائر التي تداعب خياشيم إخوانك بقسوة فتحول بينهم وبين خشوعهم!. فمالكم كيف تحكمون !

العطلة

عندما كنّا صغارًا كنّا نَهْتَبِلُ الفرصةَ أيام "العُطَل" فنذهب إلى أماكنَ ذات بهجة ومناظر خلّابة، ومياه عذبة تسّر النّاظرين، ناشدين الرّاحة والهدوء، والتّخلص من بعض الوجوه الخَشِنَة التي كنّا نفتحُ أعيننا عليها صباحًا وعند المساء في المدرسة، كنّا نأخذ معنا آلة تصوير بدائية، تُظهرنا بشكل باهت ومع ذلك كنّا نجد في أنفسنا سعادة كسعادة العصافير، تغدو خماصًا وتروح بِطانًا، أمّا اليوم فلم نعد نشعر بشيء من هذا، وقد تكاثرت علينا هذه الوسائلُ التّكنولوجية كما تكاثرت الظّباء على خِراش، نمرّ على الأشجار والأزهار والجبال الشّوامخ مرورَ اللّئام، لا نقيم لها وزنًا ولا أدنى اهتمام، ماتت السّعادة البريئة في قلوبنا وتجمّدت عواطفنا أو كادت، وأصبحنا كتماثيل من الشّمع لا تحرّك ساكنًا إزّاء الخير والحبّ والجمال !

المحمول

مازلتُ أذكرُ حين ظهرَ الهاتفُ المحمول أوّلَ مرّة، كيف كنّا ونحن في زمن المراهقة نتمنّى هذا العجبَ العُجابَ الذي يمكن للإنسان أن يحمله معه إلى أيّ مكان شاء، بل يمكنه أن يتّصل بأي مكان في العالم وهو في بيته أو عمله أو في الشّارع أو السّوق أو السّيارة وما إلى ذلك. ولن أنسى تلك الأيّام التي اشترى فيها ابن عمّي وصديقي محمولًا ضخمًا وكأنّه مسدّس من مسدّسات مجاهدي الأفغان! وكان لا يفرقنا إلّا النّوم من أجل الاستمتاع به، وانتظار من يكلّمنا فيه طوال النّهار، كنّا نوزّع الرّقم على كلّ من نجده في عرض طريقنا، ونؤكّد عليه أن يتّصل بنا ويتواصل معنا، نعبث ونلعب ونرسل الرّسائل لأرقام مجهولة لا نعرفُ أصحابها، وكنّا والله كما في المثل المغربي "هَبِيلَة وقالُوا لها زَغَرْتي"، وكم كنتُ أغبط ابنَ عمّي هذا وهو يضع هذا المحمول في سترة سراويله مفتخرًا ومنتشيًا وكأنّه رجل من رجال الدّرك الملكي يذهب ويجيء منتصبَ القامة يمشي.!

مكر

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

من قديم الزّمان كانت المرأة مولعة بالقيل والقال وكثرة السّؤال؛ لذلك وصف الله ثرثرةَ هؤلاء النّسوة بالمكر ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ ولم يقل بقولهنّ. وهؤلاء النّسوة من علية القوم، فلا تظنّ أنّ القيل والقال حِكر على الفقيرات أحلاس البيوت والفراغ كلّا وربيّ.

والإسلام بتعاليمه شرّف المرأة وجعلها تنأى بنفسها عن هذه التّرهات!

المرأةُ الفاضلة

المرأةُ الفاضلة لا تحتاج منكَ قصرًا في رومَا، ولا سيارة فاخرة تذرع بها شوارع باريس جيئة وذهابًا، ولا كنوزًا من الذّهب والفضّة تملأ جيدَها ومِعصَمَيْها، ولا تحتاج منك أن تكون وزيرًا في بلد متحضّر غارق في الرّاحة والهدوء. فقط تحتاج منك كثيرًا من الحبّ، والمبالغة في الاهتمام بها لتشعرها بضرورة وجودها في قلبك، كأن ترفع سمّاعةَ الهاتف من عملك لتخبرَها أنّ الوقتَ يمرّ بطيئًا جدًّا كالسّلحفاة، في ظلّ هذا الشّوق الجارف الذي يكاد يفتك بك، وأنت بعيد عن بريق عينيها اللّتَيْن تكتب على ضوئهما خواطرَك وأشعارك الرومانسية كلّما هبّت رياح الرّباط المقدّس بما تشتهي سفينة وفائكما !

الفقر يصنعُ الرّجال!

زرت رجلًا من قبيلتنا قبل أشهر، اغتنى بعد فقر فلم يُعرْني أدنى اهتمام، فانصرفت عنه غير مأسوف عليه، ثم في طريق عودتي إلى بلدي عرّجت على صديق فقير مُعْوِز، فلما رآني كاد يخرج من إهابه فرحًا، وعانقني بشدة حتى كاد جسمي النحيل ينكسر بين ذراعيه، ثم أقسم أن أنفقَ اللّيلَ في صحبته، ففعلت، فكانت ليلة من أروع الليالي!

مفرّطون !

دخلتُ مسجدًا بعدما رُفعَ أذانُ العشاء في سماء المدينة، فوجدت رجلًا حليقَ اللحية على كرسيٍّ ضخم يعِظُ الناسَ، فالتقطَتْ أذني هذه الكلمة من فيه: "إننا مُفرطين في دين الله"! هكذا بنصب خبر إن، فقلت له في نفسي: صدقتَ، ومفرِّطون أيضًا في اللغة العربية وقواعدها.

الشيطان الواعظ !

قال لي الشّيطانُ مرّة وأنا ذاهب معه لقضاء بعض الكبائر إبّان مراهقتي، لا تخفْ من شيء يا ربيع عمري، فإنّ الله يغفر الذّنوب جميعًا، وتذكّر الحديث الأخير في الأربعين النّووية حيث قال نبيّكم :"يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة" رواه الترمذي وصححه ابن القيم وحسنه الألباني!

أستاذي المَاكر!

حين كنت أدرسُ في الإعدادي كنتُ متفوّقًا، فوقع بيني وبين مُدرّس اللّغة الفرنسية سوءُ تفاهم فحقدَ عليّ، وبعد أيّام أجلسَ بقربي صبيّة فاتنة النّظرات، غضّة الإهاب، ملابسها تصرخ بالإغراء، أمّا عطرها فكان يفتك بما تبقّى من طفولتي وبراءَتي!، فلم أستطع الصّمود أمام سيولها الجّرارة، بل لم يكن معي من العلم بالله ما أدفع به هذا الابتلاء وهذا الكمين الذي نصبه لي أستاذي الحقود، فعاقبني الله بالرّسوب والحِرمان من الفرح بالنّجاح كأترابي.

النبض الرابع

مع قلبي

براءة

حين كنتُ صغيرًا قد تجاوزتُ العاشرة بقليل، تعلَّقَ قلبي بطفلة في مثل سنِّي، ودام هذا التعلُّق لسنتين أو ثلاث، كانت تسكن في الحي الذي أسكنه، فكنا نتبادل النظراتِ البريئةَ، والابتسامات الحالمة، والكلام اليسير، فخطر لي مرة أن أراسلها كما شاهدتُ في أحد الأفلام "المصرية" فكانت الكارثة حين وقعت الرسالة في يد أخيها الأكبر، فتنبَّه الغافل، وتحرش العاذل، وتحذر الأهلُ، فحالوا بيني وبين لقائها وتوعَّدوني، فضاقت بي الأرض بما رحُبَتْ وضاقت عليَّ نفسي، فصرتُ لا أبرح الحي إلا لضرورة ليسَ لي منها بدٌّ؛ مخافةَ أن أنفردَ بأحد من إخوتها الذين بلغت قلوبهم الحناجرَ من الغيظ، لكنني فشلت في ذلك، ونصبوا لي كمينًا في ملعب لكرة القدم، وكنت من عشَّاقها، فكان العِتاب وكان السباب!

فكانَ ما كان ممّا لست أذكره فظُنّ شرًّا ولا تسأل عن الخبر

ذات مساء

كنتُ أقرأ عليها "غرفة الأحزان" للمنفلوطي، وهي قصة قصيرة في كتاب النّظرات، فكانت تتأثّر تأثيرًا عجيبًا، وتقول لي: حسبك يا ربيع فقد أدميتَ قلبي وأحزنتَ جوارحي، وما اتّصلتُ بك في هذا الوقت المتأخّر من اللّيل إلّا لتسمعني ربيعياتك التي تبعث على الأمل والحبّ والخير والجمال، لا أن تسرد عليّ بكائيات هذا الرّجل الذي سار بحزنه الرّكبان والمشاة، حتى أصبح مثلًا لأدب الدّموع والنّحيب والعويل !

وجدتُ نفسي عندها !

كم هو ممتع أن تجد قلمك بين أنامل أنثى صادقة القلب، ناضجة الفكر، واسعة الخيال، ناعمة الكلمات في غير إسراف، تقول القولَ اليوم وتسعى لتطبيقه غدًا، الكتابة عندها منهج حياة وليست عبثًا توزّعه في هذا الفضاء من أجل بضعة إعجابات هنا وهناك لا تسمن ولا تغني من جوع، بل هي أكبر من ذلك، تشبهني كثيرًا، بل أنا من يحاول التّشبّه بها في كثير من صدقها وحِلْمها وعفويتها، وحين أجلس إليها أجدني وكأنّني بين يدي كتاب كبير من كتب السّلف الصالح، ألتزم الصّمتَ وألوذ به في حضرتها ولا أنبس ببنت شَفَة إلّا لأجيب أو أستفسر! فلله درّها ولقلبي دُرَرُها !

رِقّة

قالتْ لي بأسف: المعذرة انتزعتُكَ من بين كتبك انتزاعًا، وأخذتك من حضن مكتبتك أخذًا لا حقّ لي فيه، وأنتَ العاشق الولهان لهذه الكتب والأسفار التي تشملك بغبارها ورائحة الأموات والأحياء من أصحابها، فسامحني أرجوك؛ فليسَ من خصالي أن أحولَ بين المرء وخليله، ولا بين العابد وخلوته هذه التي اختارها لنفسه، لكن في عينيك بريق يغريني بالبقاء معك بعض الوقت على قيد الحبّ والحياة، فهل أنت غافرُ ذنبي منذ اليوم يا ربيع الكتب !

فقلت لها بعدما أزحت عن صدري رواية "امرأة من روما": إنّك المجلد رقم واحد من مجلدات الغرام، التي تحلو لي قراءتُها كلّما حاول طيرُ الكَرَى التّحليقَ فوقَ رأسي في غياهب هذا الليل المدلهمّ الذي يمرّ سريعًا في حضرتك.!

وأخيرًا

وأخيرًا وجدتُ قلبي، بعد بحثٍ دام عشرات السّنين، وجدته نائمًا في أحضان امرأة هربت من رواية عربية ضاقت ذرعًا بفصولها، امرأة كلّ شيء فيها يبعث على الكتابة، على الفرح، على السّفر والاغتراب في سبيل الوفاء. كانت تنتظرني مع كلّ شروق شمس، لكنّها لم تكن تعرف شيئًا عن الغروب .!

شذاها

قبلَ معرفتي بك ما كنتُ أحبّ الجلوسَ في الأماكن الخالية من البشر قربَ أشجار اللّيمون والبرتقال، التي روائحها لا تملأني بشذاها الفوّاح، ولكن تملأني بك أنتِ، فهي منبتُ ذكرياتنا كما تعلمين، وحين يهبط اللّيل بعباءَته السّوداء المرقّعة بالنّجوم كنت أختلِفُ إلى دياركم لعلّي أظفرُ برسالة منك تخطّها عيناك المتعبتان السّاهرتان في سبيل حبّنا الذي سهرنا من أجل إرساء دعائمه الشّهورَ والأيّام، ثمّ كنت أعود مملوءًا بالسّعادة إلى بيتي وابتسامتك الخالدة في قلبي تشيّعني، تُدغدغني، وتسكبُني في أيّامك انسكابًا.!

لا أستطيع !

كيفَ أستطيعُ الكتابةَ إليكِ اليومَ وليسَ هناكَ ما يبعثُ على ذلك، جوٌّ حياتِي قاتمٌ، وصدري ضيّق بما فيه الكفاية، وأنفاسي تشتعلُ بها روحي كالنّار في الهَشيم، وغربة تستبدّ بي في وطن شائِهِ الملامحِ كجثّة عفنة لا يواريها تراب، حتّى الكتب التي كانت أنيسي في وحدتي وسميري في خلوتي لم يعُد مفعولها يسري في كياني، في أعماقي، كما كانت في القديم تفعلُ، وها أنت تلحّين عليّ في مراسلتك ما وسعك الإلحاح، لتتعرّفي على حالي وأحوالي وآخر أخباري، مشتاقةً إليَّ كاشتياق المجاهد إلى وجه أمّه وأبيه وإخوته وأصحابه، يَذهبُ بك العشقُ والهُيامُ مذاهبَ الرّومانسيات الحالمات بذلك الغد الأجمل الذي ينام بارتياح في مخيلاتهنّ الواسعةِ التي لا تدركها الأبصار.!

ثرثرة فوق عين أسَرْدُون

نِمْتُ البارحةَ بعد صلاة الظّهر بعدما وجدتني منهكًا وقد زادني السّهرُ نصبًا ورهقًا؛ فرأيتكِ في أحلامي وأنا بين اليقظة والمنام ترفلين في فستان وردي اللّون ناعم الملمس ينطق بالإغراء، وابتسامة عريضة منبثقة من شفتيك الصغيرتين تقول لي: ها أنا ذي. وأنا في حيرة من أمري ضاعت منّي الكلمات التي ينبغي أن تقال في مثل ذلك الموضع حتّى خلتني من عِيّي وحَصَري أمام فتنتك ووضاءتك باقلًا! فانتشلتني من ضياعي بكلمة مقتضبة انطلق بها لسانك العذبُ الزلال برّقة لا عهد لقلبي الضّامر بمثلها! فابتسمتُ راضيًا مسرورًا وسعادة اللّقاء تكاد تخسف بأرض أعماقي!. أسعفني لساني حينها وجعلت أهمس لك كعصفور اهتزّ طربًا وغرّد حبورًا: أنا ضائع أنا جائع بدونك يا امرأة تمشي في قلبي الهوينا لا ريث ولا عجلُ!. فقلتِ لي ممازحة: دعنا من الأدب ومن أشعار الجاهليين ومن تنميق الكلام؛ فقد قرأت لك في سالف الأزمان حتى امتلأت بك. أما الآن فأريدك ربيعًا في كلّ فصولي، يا من أسهرتَ ليلي فهذا نهاري ملك لك !

أصابعُ لوليتا

أخبرتكِ في الرّسالة السّابقة أنّ سماء أيّامي ملبّدة بغيوم الكآبة، وأنّني لا أستطيعُ الكِتابةَ إليكِ وأنا على هذه الحال التي يصبح قلمي فيها كأنّه مِغْزلٌ عارٍ، يعتريه ما يعتريني، ويكابد من الضّيق ما أكابدُ، لكنّني منذ يومين قد استطعت أن أتجاوز كلَّ هذا وأعودُ إلى حياتي الطّبيعية الهادئة في ظلّ كتبي وأوراقي وأقلامي ورسائلكِ المتناثرة هنا وهناك، أقرأها قراءة وأرتّلها ترتيلًا، واقفًا عند كلّ لفظ، وكلّ كلمة، وكلّ جملة جادت بها أناملك المرتَعشة حبًّا واشتياقًا وحنينًا، وقد دقَّ قلبي بعنف حتى خشيتُ عليه وعلى نفسي من الضّياع حينَ قرأتُ لكِ في رسالتك الأخيرة ذلك الخبر المشؤوم الذي انبثق من بين كلماتك كشيطان مارد انشقّت عنه أرض أعماقي، ولولا استدراكك بكلمة "اطمئنّ، فلن أرضَخ لهم ولو كان في ذلك حتفي" التي اطمأنَّ إليها قلبي، واسترخت لها جوارحي، وتنفّستْ روحي الصّعداء؛ لعدتُ أدراجي إلى حزني وكآبتي وقتامة أيّامي الخالية منكِ ومن رسائلك التي بانقطاعها عنّي ستنقطع حِبال سعادتي.!

أنثى السّراب

أبطأتِ عليَّ هذه المرّة في رسالتك، وتأخّرتِ عليَّ في ردّك، وقد كان الشّوقُ قبلَ الآن يُسرعُ إليك إسراعًا، ويدفعك الحنينُ دفعًا لمراسلتي وتقصّي أخباري، فما بالُك أمسكتِ عن ذلك إمساكًا، وأحجمتِ ما وسعكِ الإحجام، تاركةً قلبي هذا المضطرب التّالفُ يدقّ دقاتٍ لا راحة فيها ولا هدوء ولا اطمئنان، حتّى خشيتُ عليكِ وعلى نفسي من سوء ظنّي وهواجسي المُضنية. مرّ أسبوع كامل دونَ أن أظفرَ فيه بخطاب منك تنطلقُ له أسارير وجهي السّاهم، وتفكيري الشّارد، فما أراك بإبطائك هذا المُتعمّد إلّا باحثةً عن حتفي وقتلي، وقد غرّكِ منّي "كما قال امرؤ القيس" أنّ حبّكِ قاتلي، وأنّكِ مهما تأمري القلب يفعل !

حبيبتي بكماء

وها قد انقطعت الأسباب بيني وبينكِ، فأعرض كلّ واحدٍ منّا عن صاحبه إعراضًا، فأصبح الكلام بيننا كأنّه ضربٌ من ضروب الثّرثرة، أو نوعٌ من أنواع العبث، أو لونٌ من ألوان الضّيق الذي يتملّك قلبَكِ المتعب، وقلبي المنهك. وبعدما كان كلامي يُحيي الطّفلة التي تسكنك، صار يستفزّ العجوزَ الشمطاءَ التي تتلبّسك!، استحالت أيّامي إلى ضياعٍ في غياب تلك النّبرة النّاعمة التي كان يجودُ بها قلبك، وينطلقُ بها لسانك كالماء السّلسبيل منسابًا في أعماقي بعد طول صيام في حمأة قيظ واشتداد حرّ، أنكرتِ صُحبتي وأشحتِ عنّي بوجهك المنير الذي أضاء حياتي في زمن ودّنا، فما بالك تتعمّدين إلقائي في جبّ الظّلمات بابتعادك عنّي، وهأنذا كمخلوق تافه موغل في التّفاهة يجلس وحيدًا على حافّة الهاوية ينتظر منك نظرةً فابتسامةً فسلامًا فكلامًا فموعدًا فلقاء.!

أحلام اليقظة

وَلقد ذكرتكِ في سجودي وأنا بين يديْ مولايَ كقَشّةٍ في فَلاة قاحلة لا تسمع فيها إلّا دقات قلبي وزخّات المطر، أجأرُ إليه، وألهج بذكره داعيًا بكلّ صدق أن يرزقكِ سعادة غامرة، تتبدّد من خلالها سُحُبُ الحزن التي تُخيّم على دنياك التي كانت مستقرّةً وهادئةً، قبلَ معرفتك بالربيع النّاشر سلطانَ حبّه على هضاب قلبك الضّعيف، مستشعرًا ضآلتي وأنا أمرّغ مِعْطَسي في التّراب لعلّي أنتظم في سلك الخاضعين له سبحانه، ولعلّ أن يكون ذلك سببًا في الاستجابة لدعائي، إذ إنَّ سعادتَك حُلم من أحلامي الكبيرة التي تراودني كلّما اندلعتْ حروبُ الأماني في زواياي.!

قلتُ لها تعاليْ فتعالتْ !

رأيتها أوّلَ مرّةٍ جالسةً على رَويّ قصيدة غَزَلية جاد بها قلبُ شاعر تائه، فسألتها الرّفقة في عالم الواقع قبلَ أن تضيع في عالم الخيال، فقالت وعيناها ترنوان إلى الأفق البعيد: كونك الضّيق لا يتّسع لأخلاقي، وشمسي المشرقة لا تعرف شيئًا عن الغروب فتزوّد منّي بما شئتَ قبل الرّحيل، واكتبني بحبرك وشوقك وغضبك وكلّ حماقاتك فستجدني منسابة بين يديك كأنّني الماء أو كأنّني الهواء. فتلاشتْ ولم تزِد !

فتنةُ البوح !

قلتُ لها مرّة بعدما انسابت روحها في أحضان اللّيل، تبحث عن الفراغ لتنسكب في أعماقي: أحبّك حبًّا لو سمع بذكرياته مجنون ليلى وجميل بثينة ونزار قبّاني لصاروا أشعرَ الجنّ والإنس غزَلًا !

فامتدّت إليّ يدُ الحنان لتسكتني، وتخبرني أنّ قلبها الرّقيق لا يحتمل !

✍ ✍ ✍

أحبّته أكثر مما ينبغي ! !

إنَّ الحبَّ قد حال بينَها وبين حياتها التي كانت إلى وقت قريب تفيض بالسّعادة والهدوء، جعل أيّامها تنقلب رأسًا على عقِب في وقت وجيز جدًّا لم يخطر لها على بال، ورغم ذلك كانت تحدّثها نفسُها البريئة أنّ العذابَ في الحبّ أحلى من الهناء في غير حبّ. يدقّ قلبها بعنف كلّما لاح طيفُ ذاك الغريب الذي أسكنته مَدينةَ قلبها الخالية من بني البشر، وتكادُ تخرج من جلدهَا فرحًا كلّما أكّد لها أنَّ الحياة من غير شمسِها التي تشرق على قَرية فؤاده لا قيمة لها ولو من بعيد، تفيض عيناها بالدّمع، وتنسكبُ عَبراتها الدّافئة على وجنتيها في غير رفقٍ كلّما تذكّرت البحارَ الزّاخرة، والمسافات الطّويلة التي تقطعُ عليها حبلَ أمانيها اللّذيذة وأحلامها الهاربة نحو أفق وسماوات غَريبها الحبيب. كلماتُ الحبّ العذبة التي تسترخي بحنان فوق بياض رسائله إليها تجعل حزنها يخرّ صعِقًا ولو للحظات يسيرة، تنسى من خلالها موقعها من الأرض وترتيبها الأبجدي من هذه الأعداد الهائلة من بني الإنسان، وتضيع منها بوصلة الوَقتِ فلا تدري في أيّ زمن هيَ من أزمان الله تعالى قُدّرَ لها أن تعيش، تعيد قراءَتها مرّات ومرّات، بل تعيدُ كتابتها بخطّها الأنيق على دَفتر اختارته لنفسها أنيسًا وسميرًا أحبّ إليها من ديوان "ابن زيدونِ" وأغلى من روايةِ "الرّباط المقدّس"، تسهر معه الليالي الطويلة حينَ تشعرُ بطائر الحنين يُغرّد فوقَ أغصان قلبها الأسيف.!

بنتُ حَارتِنا

عندما أصل إلى درجة عالية من النّضج والاستواء سأخبر النّاسَ عنكِ، سأذيع أشعاري التي كتبتُ، وخواطري الّتي دبّجتُ بحبر الوفاء في سنوات جفافي، وسأروي لهم حكاياتنا ونحن نختلس اللّحظات من جيوب الأيّام العطشى التي تبخل على أمثالنا بما لديها من نعيم، بعيدًا عن أعين الرّقباء، وسأحكي لهم بالتّفصيل المُملّ عن تضحياتك عندما كنتِ تتركين كلّ شيء من أجل هذه اللّحظات السّعيدة في سبيل حبّنا الطّاهر، الذي أشرف على الحياة أو كادَ في ظلّ صبرك الجميل على جفائي وتصرفاتي الطّائشة، سأبوح لهم بكلّ ما كان يعتريني من شعور، وما يُساورني من إحساس عندما كنت تتركينني لليل الوحدة البهيم وتذهبين لحال سبيلك مرغمة، وكيف كانت الهواجس المضنية تستبدّ بقلبي السّابح في بحور الذّكريات، مع أرق آثم لا تبدّده إلّا شموسُ عينيك وهي تشرق في مدائن أعماقي بفرح صبياني، وفي الأخير سأعلن عن أحلامنا النّاعمة في يقظتي المكتنزة بروحك، ونومك البريء المليء بربيعياتي الخالدة.

عطشُ السّنين

جلستُ تحتَ ظِلالِ شجرة الذّكريات، أقلّب بيد مُرتعشة وقلب خافق كتابَ ماضينا، أبحثُ عنكِ في أماكنَ كانت لفرحنا مسرحًا، فوجدتكِ توزّعين النّظراتِ بين تلك الحقول النّاشرة رائحة الأشجار والأزهار والمياه المنسكبة في أعماق أمّنا الأرض، تبتسمينَ بحيرة تحت قبّة السّماء الصّافية في وجه الغد المجهول الذي قد لا يجمعنا، لأسباب تعرفينها أكثر منّي، تنطلقُ من أعماقك زفراتٌ حَرَّى تكاد تفتك بالأنثى العاشقة بداخلك، والطّفلة التي تحملين براءَتها بإصرار وإلحاح رغم أزمات السّنين، ونتوءات الأيّام، هذه الأيّام التي لم تستطع أن تسقطك ضحيةً للخذلان والفشل الذّريع في الزّمن الكئيب، يدفعك الحبّ وتؤازرك الأحلام ويداعبُ الأملُ قلبَك الصّغير. الأملُ هذا المصباحُ المنير الذي كنت دومًا تقرئين على ضوئه ملامحَ وجهي الخَشِن النّاطق باشتياقي وانعتاقي في سبيل الوفاء والبقاء على قيد الحياة من أجلك. نعم من أجلك.

فوضى الحواسّ

قَالتْ لي لم أعدْ أراكَ تكتبُ شيئًا عن الحبّ، ولا عن الأنثى التي كنتَ ترسم تفاصيلها الصّغيرة على أوراقك البيضاء ذات البراءة اليتيمة، وما علمتك إلّا مرهفَ الحسّ رقيقَ الشّعور، تذهب بقارئك مذهبَ الرّومانسيين الحالمين بعالم أفضل من هذا العالم الرّازح تحت طغيان المادّة والحروب، فهل لي أن أعرفَ السّر الذي حالَ بينك وبينَ قرّائك المغرمين بحرفك النّاعم الذي كانَ يُبكي العجوز على شبابها، والشّابة على أحبابها؟

فتبسّمت بامتنانٍ ثمّ أجبتها بشيء من الفتور: لقد ماتت القصيدة التي كانت أبياتُها تلهمني كلّما جنّ ليل الشّوق على قلبي الكسير. ماتتْ في أحضان شُعرورٍ لا يُفرّق بينَ البحر الطّويل، والبحر الأبيض المُتوسّط!

بوْح

كانَ القمرُ بازغًا! حينَ سَرَقْنَا من جُيوب الأيّام بعضَ اللَّحظات للمُكاشفة والمصارحة التي لم تكن لي ولها في الحسبان. في ذلك الجوّ المزدان بجمال ابتسامتها الرقيقة، المعطّر بأنفاسها الوردية المنسابة في أعماقي كالنّسيم، ظلّت عواطفي المُتراكمة تسبقني إليها مُفشيةً كلَّ أسراري التي طويتُ عليها جوانحي ردحًا من الزّمان، وقبل هذا اليوم كانت تخونني شجاعتي لمجرّد أن أفكّر في اعترافي لها بما يشغل عقلي، ويعتري قلبي هذا الممتلئ بحبّها ونظرات عينيها الشّاردتين، ومن ذا الذي يجرؤ على مخاطبة الأميرة في قصر جمالها!. لم أكن أعلم حقَّ العلم بذلك الضَّعف الإنساني الذي يتملّك العشّاق حيالَ معشوقاتهم حتّى وجدتني أضع سلاح خشونتي جانبًا لأستسلم لنعومة أنوثتها التي تناديني، تقهرني، وتجعلني لا أعرف من الحياة إلا اسمها ومن الحقيقة إلّا رسمها. أنظر إلى تقاسيم وجهها الزّاخر بالطّفولة كرجل أعرابي تائه في بلاد.. كلّ شيء فيها يغريه بالبقاء على قيد الاستمتاع بجمال صنع الله في الكون والحياة. لا أَمَلُّ من رؤيتها ولا تضيق ببصري المسافر نحو السماء !

صَبابةُ مشتاقٍ

أحببتكِ حبًّا عظيمًا ملأ عليّ السّمع والقلب والبصر!. مذ رحلتِ وأنا أحاول نسيانك ودفنك في بئر ذاكرتي ولكن عبثًا، ترفلين في ثياب السّعادة بإحدى ابتساماتك المسائية في أعماقي كأميرة مِغناج خرجت من كتاب ألف ليلة وليلة، ذكرياتي القديمة معك تأبى إلّا أن تستيقظ كلّما جنّ ظلام اللّيل وهبّت نسائمه المثخنة بالحنين، أرق على أرق وسهر على سهر، وما كنت كذلك لولا عيناك العسليتان النّائمتان تحت رموشك الطّفولية الكحيلة التي تستولي على كلّ خليّة من خلاياي المتعبة، فماذا أصنع وكيف أتصرّف ولا شيء يبعث على أمل لقياك.!

هذيان أنثى

أغضبتُها؛ فقالت: لن أزورَ الحديقةَ، ولن أشربَ القهوة، ولن أسهرَ اللّيلَ، ولن أسمعَ ربيعياتك، ولن أطلّ على صفحاتك، فاخسأ بغرورك، ومت بغيظك. واعلم أنَّ طيفكَ الذي يعيش في أرض قلبي حبًّا وتقديرًا حتى كاد يخالط الحلم بلْهَ الحقيقة، سأخرجه رغمًا عنّي وعنك ولا أبالي.!

العارفُ بقلبكِ

كتب لها يومًا بعدما شعر بضيقٍ كاد أن يستولي على قلبه وأيّامه :

سأكون معكِ صوفيًّا، لن أفتر عن ذكر اسمِك الأحلى، سأفرّ إلى الخلوات وأسكن البراري والقِفار حيثُ لحظاتُ التّجلي والكشف؛ لعلّي أظفر بطيفك هناك فأناجيك بعيدًا عن أعين الرّقباء، سأكون لابسًا الخشنَ من الثّياب، زاهدًا في الدّنيا، مفتقرًا إليك.. إلى قلبك هذا الذي أسهر من أجل إرضائه، فالعزلة هي الحقّ الذي لا يمكن أن يشغلني بالتّفكير في شيء سواك، وسأدرّب نفسي على الصّبر والجوع وكبح النّفس عمّا سواك، فأنت أنا، وأنا أنت، ولا فرق بيننا، فأنت إحدى كراماتي، وقلبك معجزة من معجزاتي فلا تنأي عنّي وكوني لي ملء السّمع والبصر والفؤاد، ولك محبّتي الخالدة التي لا تريم ولا يعتريها الأفول !

زارني الحبّ

حبّي لها لم يكنْ شيئًا مُنْتَظَرًا، ولا مهّدتُ الطّريق لقلبي كي يستقبلها، بل لم يكن الحبّ من الأشياء التي تستهويني، ولا التي أشغل بها فؤادي هذا الهادئ، لكنّه انبثق من أعماقي فجأةً كابتسامة طفل بريء رأى قطّة ناعمة على حين غفلةٍ منه تُلوِّح له بذيلها! وإن شئتَ فقل جاءني فجأة كالموت وأنا سادِرٌ في غييّ لا أشعرُ!

أهديكِ قلبي !

إلى التي قالتْ لي ذاتَ صباح مشرق بشمس ربيعية دافئة: إذا شعرتَ بملل أو ضجر تجاهي، فأخبرني ولا تتردّد؛ لأنسحبَ بصمتٍ رغم الألم الذي سيستبدّ بقلبي وجوارحي، فراحتك أهمّ عندي من راحتي! إليها أهدي قلبي هذا المتواضع !

دموعُ الدّهشة !

قبلَ أن يتنفّسَ الصّبحُ بقليل، قلتُ لها: أحبكِ أكثرَ من أبيك، وفوق ما تتخيّل أمُّكِ الحنون، فأرسلتْ دموعًا كالشّتاء غسلتُ بها ما علقَ في فؤادي الحزين قبلَ معرفتي بها !

✍ ✍ ✍

إليكِ

إليكِ.. و إلّا لا تُشدُّ الرَّكائبُ

"رسالة أدبية عاطفية جاد بها القلب في زمن ما"

هذه رسالتي إليكِ تحمل بين ثناياها نبضاتِ قلبٍ لم يعد باستطاعته احتواء أنثى غيرك رغم اتّساعه! سطرتها بقلم أحمر داكن لعلك تنتبهين أنّه شبيهٌ بلون دمي الذي تجرين من خلاله في خلاياي!

قضيتُ اليوم كلّه في الجري وراء الذكريات الهاربة، والماضي البعيد الموشّى بالأيام الحافلة بحبّك الأسطوري، ووِدَادِك الزّاخر بالوفاء! يسوقُني الحنين وتدفعُني كلماتُك العِذَاب التي كنتِ تُنْفقينها عليّ بسخاء كلّما غرّدت عصافير الصفاء فوق رؤوسنا، وأطيارُ المحبة بين بساتين قلوبنا!

واليوم فقط أدركتُ جيدًا لِمَ كنتُ أشعر بالاختناق في الزّمن السّالف قبل معرفتي بكِ! صرتُ عالمًا بنقصي آنذاك، شاعرًا أنّ الحياة لا تكون ولن تكون حياةً ذات قيمة إلّا إذا اقترنت بهذا الحبّ الصّادق الذي تضطرب له قلوبنا، وترتعدُ له فرائصنا كلّما غاب أحدنا عن الآخر! وكم كنتُ أودُّ أن ألتقيكِ على مسرح الحياة حين كانت ذكرياتي هذه الجميلة تجري وراء

فراغي الكئيب، ولكن عبثًا! كانت المسافة التي تفصل بيني وبينك أكبر من أن تسمح لنا بلقاء عابر نغتال من خلاله الشّوق الذي يسكننا!

أنتِ يا سيدتي نورٌ متلألئ قد بدّد ظلماتِ أعماقِي، وهأنذا أكتبُ على ضوئكِ كلماتي الواقعية الصّادقة لأحييَ بها مَوَات بعض القلوب التي لا تعرف المحبةُ سبيلًا إلى قلوبهم الفارغة إلا من الكراهية والبغضاء! ولتكون لكِ نبراسًا تهتدين به في ظلمات المسافة التي تحجبكِ عنّي! وليتك تُدركين أنّني أكون غارقًا في هموم الدنيا ومع ذلك أجد قلبي النابض بك لا يلقي بالًا للعالم بأسره، مُكتفيًا، مُتلذّذًا بمحبتك التي أضفتْ عليه حياة قلّ أن يجود الزمانُ بمثلها! وقد رأيتُ فيما يرى الهائمُ أن أستبقيك بجانب روحي العطشى مادامت السموات والأرض والجبال والبحار والأنهار إلى أن يشاء الله!

وقد أصبحت لديّ رغبة جامحة في البقاء في هذه الدنيا رغم تفاهتها لا لجني أزهارها، وثمارها، وتتبّع لُعَاعَتِها الفانية، ولكن لأنّ قلبك فيها ينبض صباح مساء بي مستمدًّا وجوده من وجودي كما أستمد أنا عافيتي من طمأنينتِه! فلن أسْأم تكاليف هذا الحبّ الماتع معك سيدتي ولو عشتُ في رحابه ثمانين حولًا صدّقيني! فأنتِ حقيقة تخرّ لها صرعى كلّ الأوهام، كلّ الهواجس المضنية، كل الخواطر المؤرّقة!

فكلما ازداد حبّي لكِ ازداد شوقي للانصهار في بوتقتك، في كيانك، وفي كلّ ذرة من روحك المسافرة في أنحائي. لا تملأ عيني امرأة سواك،

مهما بلغْنَ من جمال الظاهر، وروعة الباطن، ففيكِ سرّ لا يعلم كنهه إلا الله والرّاسخون في الحبّ!

سأخبركِ بشيء خطر لي الآن وأنا على وشك الانتهاء من كتابة هذه السطور وإن شئت فقولي خطر تساؤل- أرجوكِ لا تضحكي عليّ- هذا التساؤل مفاده: كيف يليق بأناسٍ تمرّين بهم في عُرض الطريق لا يلقون لك بالًا ولا أدنى اهتمام!، في حين لو كنتُ مكانهم لفرشتُ لك الورود والأزهار، ولركّزتُ كل حواسي تجاهك لأملأ ناظريّ من هذا المشهد المهيب، حبيبتي! راسليني كثيرًا عزيزتي، وناديني في رسالتكِ باسمي كثيرًا. إنكِ كما تعلمين لا قيمة لاسمي إن لم يكن متأصلًا في أعماقك، مُتَفَتّقًا من بين شفتيك، ومحلّقًا في سماءِ أحلامِك وأمانيك!

ودامت لك المسرّات.

تغريدات قصيرة

إن كان الله قد وهبني نِعْمَةَ الكتابة وحبّ العلم وأهله، والانصهار في بوتقة الأدب الرّفيع والعيش في سبيله؛ فَمِن شُكْر هذه النّعم عليّ أن أُسَخّر هذا القلم "رغم تواضعه" لنصرة هذا الدّين العظيم والدّفاع عن حرماته ومقدّساته وعلمائه؛ لعلّ الله أن يجعلني من أهل قوله:
﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾

***

النّبيّ - ﷺ- كان ذوّاقة للأدب والشّعر، يستحسن الأبيات، ويطلب الاستزادة منها، ويمدح النّثر، ويقول فيه: إنّ من البيان لسحرًا. وإذا رأى مبالغة في الغَزَل بصوت رخيم الحواشي يقول: رُويدك، رفقًا بالقوارير يا أنجشة!

***

اللهمّ إنّي أشهدك أنّي أحبّه- ﷺ- أكثر من نفسي وولدي ووالدتي ومكتبتي والنّاس أجمعين!

***

أبو الطّيّب المتنبي مدحَ سيف الدّولة بقرابة أربعين قصيدة، تُعدّ من عيون الشّعر العربي، مدحه طلبًا للمجد الدّنيوي، ولم نجد له قصيدةً واحدةً يمدح فيها سيّد البشرية- ﷺ-؛ لأنّه لم يكن يبحث عن المجد الأخروي !

لسان العرب لابن منظور الإفريقي جنة من الجنان، وروضة من الرياض، وحديقة من الحدائق الغنَّاء، من يدخل إليها، ويتشرف بزيارتها، لا أظنه سيخرج منها إلا كلفًا محبًّا عاشقًا لأشجار الضاد الوارفة الظلال، التي تغرد فوق أغصانها عصافير العرب الأقحاح الأصلاء!

*** *

لو كنتُ أعلم أنّ رسائلَ أبي عُثمان الجاحظ رحمه الله فيها كلّ هذا السّمو والإبداع، والإمتاع لما أخملتها كلّ هذا الخمول، ولما أخرت قراءتها كلّ هذا التّأخير، ولذهبت أبحث عنها بحثي عن الحقّ الذي تتوق إليه قلوب المؤمنين الصّادقين !

*** *

كثير من عُشّاقِ الآداب العالمية، من الغربيين يجاهدون جهادًا عظيمًا في سبيل تعلّم اللّغة العربية وإتقانها، ليستطيعوا القراءة والاستمتاع بكتب الجاحظ وغيره من عباقرة هذه الأمّة، فكيفَ بك أنت يا من تنتسبُ إلى أمّة اقرأ أمّة العربية، أمّة الجاحظ والمتنبي وأبي العلاء والباقلاني والفخر الرّازي وابن تيمية وابن القيّم وابن حجَر والشّوكاني وهلمّ جرّا إلى ما لا نهاية !

*** *

كتب الأدب "الرّفيع" ترقّق القلب، وتصقل الموهبة، وتعلّم التّأمل في جميل صنع الله، وتجعلك تلتقط الأشياء التّافهة التي قد لا يبالي بها غيرك، فتصير بقلمك ورودًا وأزهارًا تملأ بعبيرها قلوبَ قرّائك !

***

الخواطر التي أحتفظ بها لنفسي، أكثر من الخواطر التي أشيعها بين القرّاء، لا أكتب إلّا ما أشعر به، وعاهدت نفسي منذ القِدم أن لا أخدع القارئ ولا أستطيل عليه بذكائي، كما اتخذت لي منهجًا في الكتابة يقوم على الاختصار والوضوح والابتعاد عن اللّغة الخَشِنة التي لا يفهمها إلّا أهل الاختصاص !

مِن هواياتي المفضلة قراءة مقدمات الكتب وفهارسها، أجد متعتي وأنا أقلب صفحات كتاب جديد قبل أن يأخذ مكانه بين أصدقائه من الكتب، أكتشف طريقة الكاتب ومنهجيته، وخطته التي ارتضاها لنفسه ولكتابه، وفي الفهارس كنوز ودُرر؛ لذلك قال شيخ العربية محمود شاكر: الكتاب مِن غير فهرس كنزٌ مغلَق، فاقرأ الفهرس قبل كل شيء!

***

سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي كتاب مبارَك، كتب الله له القَبول في الأرض، وما ذاك إلا لإخلاص صاحبه وشدة تحرّيه للحق، وإنصافه النادر، وفيه بعض الهنَات والزلَّات دفعت بعض العلماء للتنبيه عليها، مثل كتاب: "عقيدة الإمام الذهبي" للشيخ سليمان الخراشي!

لا يوجدُ لا في القُدامى ولا في المُحدَثين من تكلّم عن الكتاب بطريقة أدبية طويلة بديعة كأبي عُثمان عمرو بن بحر الجاحظ، في مجلده الأول من كتاب الحيوان، وكلّ من جاء بعدَه فهو عالة عليه في هذا الباب!. فللّه أبوه ما أفصَحَه، وما أطولَ نفسَه في الكتابة النّثرية !

***

القصص القصيرة في هذا العصر من الفنون الأدبية الجميلة التي تروم قراءتَها النفوسُ المطمئنة، والفِطَر السليمة. لكن مع بالغ الأسف قد تزيَّا بزيِّها من لا يُفرِّق بين القفلة والحبكَة والتكثيف، أما اللغة وقواعدها فإنها تشتكي إلى الله من هذا الغثاء الذي أصبح يملأ المكتبات والمعارض الدولية والوطنية.

***

ذكروا عن عمرو بن عبيد أن رجلًا قال له: لقد وقعَ فيك فلان حتى رحمناك، فقال: «إياه فارحموا»، وقد صدق؛ فالرحمة والشفقة لا تجوز إلا في حق هذا الصنف من المخلوقات التي لا همَّ لها

إلا الوقوف في طريق من ينشد النجاحَ، ويَصبو إلى الارتقاء، ويَحضرني في هذا الصدد الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي حين قيل له: فلان هاجمَكَ فلم ترد عليه! فقال: كانَ ردي عليه بأن أصدرتُ كتابًا جديدًا.

***

القراءة في "مقاييس اللّغة" لابن فارس شيء ممتع ومفيد، أشعر بنفسي كرجل من بلد أجنبي وسط جماعة كبيرة من الأعراب الأقحاح. وهذا الرّجل لا يعرف من العربية إلّا نتفًا يسيرة لا تخوّله للانتساب إليها وإليهم !

***

كم أغبطُ قرَّاء ذلك الزمن الجميل حين كانت تصدر المجلات والصحفُ، فيكون كتَّابها: عبد الله كنون، عبد الكريم غلاب، الرافعي، محمود شاكر، سيد قطب، الزيات، علي الطنطاوي، أحمد أمين، طه حسين، عباس محمود العقاد، وغيرهم!

***

كم أشفِقُ على الكاتب الذي يبيعُ معاناتِه للقرّاء بدراهمَ معدوداتٍ، ويبحث عن مجده الأدبي في بِيئة لا ماءٌ فيها ولا شجر !

ثلاثة أشياء لابد منها حينَ أخلو بكتابٍ علمي نفيس: قلم رصاص، كوب شاي، وهدوء اللّيل !

*** *

صدّقوني والله لو كانت عندنا مكتبات تمنح الكتبَ بالمجان؛ لوجدنا من النّاس من يعرض عن ذلك إعراضًا ويضيق به ذرعًا، ويقول هذا يومٌ عصيب !

*** *

في كتب المغاربة علم غزير، وفكر رصين، وأدب جميل، ولكن مع بالغ الأسف يصدق فيهم قول القائل :

أضاعوني وأَيَّ فتىً أضاعوا   ليـومِ كـريهـةٍ وسِـــدادِ ثَغْر!

*** *

قراءة كتب الفلاسفة قبل التزوُّد من معين النبوة الصافي مُضرَّة بصحة الإيمان وعمل الأركان، وقد صدقَ ذلك العالِمُ المسلمُ حين قيلَ له: هل قرأتَ أدبَ النفس لأرسطو؟ فقال: بل قرأتُ أدب النفس لمحمد عليه الصلاة والسلام.

*** *

كان بعض السّلف الصّالح يدفنون كتبهم اتّقاء للشّهرة والرّياء، وهذه الكتب فيها علم نافع وغزير. أمّا اليوم فقد أصبحنا نؤلّف كتبًا تافهة بلغة ركيكة وأسلوب ضامر ابتغاءَ الشّهرة والمجد، والبحث عن مكان في التّاريخ ولو ساقنا ذلك إلى حَتْفِنا.. إلى جهنّم وبئس المصير !

*** *

حين نُطالع كُتب الأدب وأمهاته لا نفكر في أخذ العلم الشرعي عنها، لكن هي لتقوية المَلَكة الأدبية والكتابية واللغوية، والتحلي بأخلاق الصالحين من العلماء والعُباد والزهاد والأدباء الذين يملئون هذه الكتب بسِيَرِهم العَطرة وأخبارهم المُحفِّزة للهِمَم.

*** *

أوّل مقالة كتبتُ في حياتي كانت في الرّد على امرأة ممسوخة الهُوية والدّين، ألّفتْ كتابًا تسيء فيه للنّبي صلّى الله وعليه وسلّم، ومن ذلك الحين رزقني الله بركةَ هذا القلم!

*** *

قرأت رواية "ماجدولين" ثلاث مرات خلال سنوات، وكل مرة أخرج منها مكبَّلًا بالحزن، مقيَّدًا بالكآبة، وعلى وجهي مسحة من الضياع، حتى يخيَّل للناظر إليَّ أن ماجدولين حبيبتي "أنا" وليست حبيبة استيفن!

حين تدركك حِرفة الأدب سيكون لك موعد مع الفقر والعوز! فلا تكن أديبًا في زمن قلة الأدب! وصدق ابن بسام: "حامل الأدب أضيع من قمر الشتاء، وقيمة كل أحد ماله، وأسوة كل بلد جهّاله، حسب المرء أن يسلم وفره وإن ثلم قدره، وأن تكثر فضته وذهبه، وإن قل دينه وحسبه"!

لو كان أحمد بن الحسين "المتنبي" عائشًا بيننا لما أشبعت نفسَه التّواقةَ جائزةُ نوبل اليهودية للأدب، ولضرب بها وجوه الذين لا يحلمون إلّا بها، من أدعياء الأدب العربي في زماننا! ولسخر منهم سخرية لاذعة، تجعلهم يتمنون لو كانوا أهل بقالة وخمول أفضل لهم من حرفة الأدب هذه التي لم تربِّ فيهم إلّا الجشع وحبّ الظّهور !

***

توهّم عائض القرني في كتابه "عاشق" ص 222، حين نسبَ كتاب "تهذيب التّهذيب" وكتاب "تقريب التّهذيب" للحافظ المِزّي، بل هما للحافظ ابن حَجَر العسقلاني، أمّا المِزّي فله "تهذيبُ الكمال في أسماء الرّجال" وهو كما لا يخفى على العلماء وطلبة العلم والباحثين تهذيب لكتاب "الكمال في أسماء الرّجال" للعلّامة عبد الغني بن سعيد المقدسي !

***

كُتُب العلّامة بكر أبي زيد، وروايات نجيب محفوظ، ومحاضرات الخطيب المفوّه علي القرني من أكبر الأسباب التي فجّرتْ في داخلي حبّ القراءة والكتابة والعيش في أحضان الأدب واللّغة، أمّا العملاقُ عبّاس محمود العقاد فقد حرّضتني كتبُه على التّفكير وعلّمتني أن لا أرضى من الغَنيمة بالإيّاب !

****

أقسم بالله العظيم غير حانث- إن شاء الله- لو ألّفَ إبليسُ كتابًا لوجدنا من منافقي أمّتنا من يقرأ له بحبّ، ويقتني كتبَه بشغف، بل ستحمرّ من أجل الدّفاع عن أفكاره أنوف، وتنتفخ أوداج، وتضطربُ قلوب، وتمتلِئُ أجوافُ الذين ظلموا أنفسهم غيظًا على مخالفة شيخهم هذا اللّعين!

****

أعرضت عن قراءة جرائدنا الوطنية اليومية لمدة شهر، فازداد وزني، وقلَّ انفعالي، وتلاشى حزني واكتئابي!

****

الكتابة شعور.. الكتابة إحساس.. الكتابة دقاتُ قلب الكاتب التي لا يهتدي إلى نبضها إلّا الأصفياء من أهل القلوب !

عشتُ في صحبة الكتب سنينَ عددًا، وقرأتُ بحمد لله ما لا يأتي عليه الحصرُ، ومن هواياتي المفضَّلة في المطالعة قراءة مقدِّمات الكتب؛ لذلك أستطيع القولَ: إنَّني لم أقرأ مقدِّمة أجمل من مقدِّمة: «أدب الكاتب» لابن قتيبة، ومقدِّمة كتاب «معجم الأدباء» لياقوت الحموي!

***

الكتابة عندي ممارسة يومية أنفق في سبيل تحسينها بضع ساعات في اليوم، أقرأ خلالَها قرابة مائة صفحة أو أكثر في شتّى الفنون !

***

يا طالبَ العلم، إذا شئتَ أن تختبرَ حِلمَك، فطالِعْ بعضَ كتب الزَّنادقة، والمُبتدعة، وأهل الأهواء، أمَّا أنا فقد طالعتُ الكثيرَ منها، فوجدتُ أنَّني لا أمُتُّ للحِلم بصِلة، ولا للصَّبرِ بهاجس، وهناك عدَّة كتب قد مزَّقتُها تمزيقًا بعد الانتهاء من قراءتها؛ حتى لا يدرِك أبنائي من الشَّقاء ما أدرك أباهم، وحتى لا أكونَ سببًا لهم في تلك الظُّلمةِ التي كانت تستبدُّ بقلبي وأنا ضائع في متاهات هذه الكتب!

***

من كانَ ضعيفَ القلبِ، خائرَ القِوى، هزيلَ الشّخصية، غيرَ واثق من نفسه، جاهلًا فليتجنّبْ الكتابةَ والتّأليفَ والبحثَ عن الشّهرة لكيْلا يُصاب بسكتة قلبية حين يُنتقَدُ ويُذمّ، فهذه الطّريق غير مفروشة بالأزهار والورود والرّياحين والعِناق والقُبل. وقد قال الأوّلون: من ألّفَ فقد استُهدِف.

***

معجمُ الأدباء لياقوت الحموي طالعتُ مجلداته الأولى فوجدت أن الرجل كانَ صديقًا حميمًا للكتب، بل كان قارئًا مدمنًا، حتى ظننت أن كل الكتب التي كانت في زمانه قد اطلعَ عليها، وقد أثنى عليه علامة العربية محمود شاكر في كتابه الماتع "أباطيل وأسمار"، وشهد له بالتفوُّق في عالم النقد والتمحيص.

***

إنَّ للنّفسِ في القراءة إقبالًا وإدبارًا، فحين تكون مقبلةً اهتبل الفرصةَ، وألقمها كتبَ العِلم والفكر، وحين تكون مدبرةً فداعبها ببعض الرّوايات المشوّقة لغة ومعنًى كروايات نجيب الكيلاني وتوفيق الحكيم !

***

ابن الجوزي في كتابه: "صيد الخاطر" ذكر الكثير عن حياته وسيرته؛ لذلك ذهبَ بعض الباحثين إلى أنه من الأوائل الذين كتبوا سيرهم الذاتية بتلك الطريقة البديعة!

***

علَّمتني القراءة أن لا أغتر بعناوين الكتب والروايات البرّاقة، وإن بالغَ في الثناء عليها أدعياءُ النقد، وعباقرة المجاملة.

***

قالتْ لي: من هو الكاتبُ الموفّق من وجهة نظرك؟

فقلتُ: الكاتبُ الموفّقُ عندي هو الذي لا يُشعرني بخيبة أمل بعد الانتهاء من القراءة له!

***

كثرة القراءة لا تصنعُ منك عالِمًا، ولا أديبًا، ولا مُفكرًا، ما لم يكن لك حظ مِن ذكاء، ونصيب من تقديس للوقت وتنظيمه.

***

هناك كتبٌ أقرأها فأَضِنُّ بها وأحفظها في قلب مكتبتي، وهناك كتب أقرأها فأتقيأ أفكارها، ثم ألقيها في سلة مهملاتي "جناح خاص بالنطيحة من الكتب"!

كثيرةٌ هي الكتبُ التي قرأناها، وسبرنا أغوارَها، ولكن العمل بما فيها، وتطبيقه على أرض الواقع يحتاجُ منّا ليَقين أبي بكر، وقوّة عمر، وسخاء عُثمان، وعزيمة عليّ، وعلو همّة سلمان الفارسي!

*** *

يصلُ طالبُ العلم إلى مبتغاه مع مرور الأيام وتعاقُب الليالي، وذكاءٍ لا بأس به، وهمة عالية، ورغبة جامحة، وصبر كصبر الإبل!

لا شك أن الأديب البارع "المنفلوطي" من أبرع المُنشئين والمترسلين في العصر الحديث، لكن النهايات غير السعيدة التي يختم بها قصصَه ورواياته المترجمة تزعجني وتزيدُ قلبي الصغير رهَقًا!

*** *

نزار قباني له قصيدة عنوانها: طفولة نَهد، وسلمان العودة له كتاب عنوانه طفولة قَلب، وكلّ إناء بالّذي فيه ينضحُ !

*** *

ثلاثة أشياء أفعلها بشكل يوميّ بلا ملل ولا ضجر، القِراءة والكتابة والنّظر في عَيْنَيْ حبيبتي !

*** *

يسألني كيفَ أصبِح كاتبًا عظيمًا وليس في بيته كتبُ الجاحظ وابن قُتيبة والمُبرّد والجرجاني، وديوان البُحتري وأبي تمّام والمتنبي، بل ليست له رغبة في قراءة الأدب القديم!

فكان جوابي: "اتّكل على الله واشتغِل رقّاصة"!!

*** *

حينَ طالعتُ كتاب "نيل الأوطار" للشوكاني تعلمت شيئًا مهمًّا غيَّر منهج حياتي، ألا وهو نبذُ التقليد، والاستمساك بالدليل الشرعي، وعدم الاغترار بالمخالف مهما علا شأنه وارتفع ذكره في الآفاق.

*** *

سأصبرُ صبرًا أيوبيًّا على مطالعة الكتب المطوّلة؛ حتى يعلمَ ابنُ الجوزي "الذي أخبر عن نفسه أنّه قرأ عشرين ألف كتاب"، أنّه خلّف رجالًا يحاولون اللّحاقَ به أو الموت دون ذلك!

*** *

لا يكون الأديب أريبًا إلّا إذا كان مترفِّعًا عن الصغائر، متواضعًا بلا مبالغة، مُعرِضًا عن اللغو والخطل- ما وَسِعَه الإعراض- وقالبًا ظهرَ المجن لكل شيء قد يحُول بينه وبين السمو الذي ينشده بقلمه الحر، وفكره المستنير!

كيف سيفهمُ الأدبَ رجلٌ لم يشمّ وردةً في حياته، ولم يعرفْ شيئًا عن جمال الغروب في فصل الرّبيع، ولم يسجد لله سجدةً إذا جنّ عليه ظلام اللّيل وذابت الحياة من حوله !

* ***

وهبني اللهُ من الكتب في أقلّ من عشرين سنة ما يكفيني لثلاثة قرون! ومع ذلك مازالت نفسي تصبو إلى المزيد، وتبحثُ عن الجديد! وصدق من قال: منهومان لا يشبعان: طالبُ علم وطالب دنيا !

* ***

أقرأ في كتاب "الأعلام" بحبٍّ وشوقٍ وشغَفٍ، وكأنني أقرأ عن آبائي وأجدادي؛ لأتعرَّف على النسل الذي كان سببًا في خروجي إلى الحياة الدنيا!

* ***

القراءة في كتاب «الأعلام» للزِّرِكْلي، تجعلكَ تشعر بتقزُّمك، وضآلة نفسك الأمارة بالكسل والدعَة والخُمول.

* ***

من أجمل عبارات العلاَّمة الزِّرِكْلِي في "الأعلام" حين يترجم لأمير من الأمراء الصالحين: "حُمِدتْ سيرته، وكانت أيامه أعيادًا، وعاش الناس في رخاء!".

قال ربيع: اللهم ولِّ علينا خيارنا؛ يحكموننا بكتابك وسنة نبيك، لتكون أيامنا أعيادًا ورخاء، ونصرًا مبينًا!

* **

من ملاحظاتي على كتاب "الأعلام" للعلاَّمة خير الدِّين الزركلي؛ أنَّه جعل ترجمةَ المغنية أمِّ كلثوم أطول بكثير من ترجمةِ ابنة سيِّد البشرية صلَّى الله عليه وسلم فاطمة الزَّهراء!

* **

في موسوعة الأعلام للعلامة خيرِ الدِّين الزِّرِكْلي فوائدُ جمةٌ من غير التراجم، ليتَ الهِممُ تستيقظُ لاستخراجها، وإفرادها بمؤلف جامع!

* **

حين يُدركني المبيتُ في مدينة أخرى، بعيدًا عن كتبي وأوراقي وأقلامي المُلوّنة وأشيائي الصّغيرة؛ أجدني كطفل ضائع انفلتتْ منه يدُ أمّه في الزّحام!

* **

أخطاءُ بعضِ النُّسَّاخ الجَهَلةِ قديمًا كأخطاء المطابع التِّجارية اليوم، لا يسلم كتابٌ من تحريفٍ أو تصحيف أو بتْر!

* **

إذا لم تكُن للكاتب شخصية مُستقلّة، فلا تلتفتْ لما يقولُ؛ فَالمتحيّزُ لا يُميّز، لا سيما في باب العقائدِ والأديان.

*** *

لو لم تمتلك من الكتب إلَّا كتاب الله، وتفسير ابن السّعدي، ورياض الصّالحين، وكتب الأديب علي الطّنطاوي كلّها؛ لكفاكَ فخرًا وشرفًا واعتزازًا واكتفاءً!

*** *

لو جمعت ما تفرق في دفاتري وأوراقي من تلك المعلومات والفوائد التي أقوم بتسجيلها خلال مُطالعاتي للكتب؛ لكانتْ في مجلد ضخم لا تملُّ قراءته!

*** *

وا أسفي على قوم يدَّعون الكتابة، وليس لهم نصيبٌ من القرآن، يستمدون منه قوة ألفاظهم، وسمو معانيهم!

*** *

سألني شاب قبل أيام: ما نصيحتك لكاتب مبتدئ؟ فكان جوابي: التزم بحفظ صفحة في اليوم مِن كتاب الله!

*** *

سورة "يوسف" حفظتُها قديمًا، وكنت أردِّدُها كل حين، وهي من الأسباب التي حبَّبَتْ إليَّ الأدب الراقي، والسرد الرِّوائي!

** **

الأدبُ هو أن تجعل من الحبّة قبّة، وأن تصنع من الحوادث التافهة حدائق تجري من تحتها الأنهار، وتحفّها أزهار وأشجار تسرّ القارئين والقاعدين على أعتاب الكآبة يجترّون مآسي الأيام الخالية!

** **

اقرأ كتابًا، ثم عُدْ له بعدَ عشر سنوات واقرأه مرةً أخرى، فإن وجدتَه كما قرأته أولَ مرة فراجع نفسك؛ لأنك لستَ بقارئ، ولا نصف قارئ!

** **

كتاب حياة الحيوان للدَّميرِي في مجلدين، طالعته قبل سنوات فوجدت صاحبه كحاطب ليل يجمع بين البُرِّ والخُشار، لكن لا أنكر أنه لا يخلو من فائدة!

** **

قبل القراءة لطه حسين يجب أن تكون مسلَّحًا بعقيدة راسخة لا تزعزعها أفكارُه المسمومة، المبثوثة في كتابيه: في الأدب الجاهلي، ومستقبل الثقافة في مصر.

طه حسين عملاق في الأدب والفكر، ولولا انحرافاتُه التي تقَمَّمَها من المستشرقين أعداءِ الإسلام، لكان محلَّ إجماع وتقدير.

أسلوبُ طه حُسين في الترسل والإنشاء والكتابة ممتع جدًّا، لا سيما في سيرته الذاتية: الأيام، وروايته: دعاء الكروان، وكتابه: الوعد الحق!

*** *

حُبّب إليَّ العلم والأدب مذ كنتُ يافعًا، كما حبب لغيري من الرفاق مصاحبةُ النساء ومعاقرة الخمر.

*** *

القراءة في كتاب "فتح الباري" للحافظ ابن حَجَر تُشعِرك بعظَمة العلم الشرعي وآلياته، ابتداءً بالمصطلح، وانتهاءً بالنَّحْو.

*** *

لا توجد في اللّغة العربية كلمةُ "مُدراء" على أنّها جمعُ مدير، كما هو شائع عند الكثيرين لا سيما في وسائل الإعلام المقروء والمسموع والمرئي، والصّوابُ: مُديرونَ في حالة الرّفع، ومديرين في حالتي النّصب والجرّ !

*** *

اكتب ما تُحدثكَ به نفسك ولا تصمت، فإنّ الكتابة دواءٌ للنفوس التي تأبى الانصهار في بوتقة الألم والرضا بالهوان.

*** *

قبلَ إغلاق صفحاتي "الفيسبوكية" قرأتُ الجزء الأوّلَ من الأعلام في عشرين يومًا، وبعدما أغلقتها قرأتُ الجزء الثّاني في عشرة أيّام، فانظروا إلى أوقاتنا كيف تُهدر في خضمّ هذا البحر الأزرق الهائج !

*** *

في أعماقي أشياءُ غامضة لا أحدِّثُ نفسي بكتابتها؛ لكيلا أخدش براءةَ الورقة، ولا أزعزع هدوءَ القارئ.

*** *

كثرة المطالعة أورثتني صمتًا كصمت أهل القبور، حتى أصبح يضيق بي وبمجالستي أهلي وبنو عشيرتي !

*** *

مازالت نفسي تهفو إلى القراءة وسبر أغوار الكتب وتأمل الكون والحياة؛ لإدراك ماهية الحقّ والخير والجمال !

*** *

الروائي محمد شكري شيَّد صرحه الأدبي على "الخبز الحافي"، فطار ذِكْره في الآفاق، وتُرجمت روايته إلى ثلاثين لغة. ولا دليل أكبر من هذا على أن العالم غارق في الرداءة وقلة الحياء.

حينَ تكتبُ شيئًا أرسل نفسكَ على سجيتها، وحدِّث الناسَ بما يُطيقون، وإياك والتكلفَ؛ فإنه قد أهلك مَن كان قبلَكَ!

***

الدكتور زكي مبارك علَّامة في الأدب، وفي تحقيق بعض كتب التراث، لكنه أساءَ إساءةً سيئة لكتاب الله الخالد في كتابه الأشهر: "النثر الفني في القرن الرابع"!

***

حين تمَلُّ نفسي من النظر في الكتب أعلم يقينًا أنني وصلت إلى درجة من الضيق الذي أحتاج معه إلى السفر بعيدًا بعيدًا عن مدينةٍ.. كلِّ شيء فيها يحملكَ على الخمول والكسل، والنوم في العسل!

***

قال لي ابنُ عمّي ألا تفكّر في تعدّد الزّوجات؟!

فقلت له دون أن أرفع عيني عن كتابي: زوجتي ولم أعد أجد وقتًا لها، فكيف أفكرّ بالزّواج بأخرى، والله لو أمكنني أن أطلّق نفسي التي بين جنبي لفعلت !لا شيء يهمّني في هذه الحياة إلّا تعدّد الكتب !

وكنتُ لا أنامُ حتى أطالعَ مَقالةً من مقالاتِ "ساعات بين الكتب" للعملاق عبّاس محمود العقاد !

*** *

يا إلهي! أصبحت أفكِّرُ وأنا نائم، أكثر خواطري أُدوِّنُها بعد استيقاظي من النوم! وأخشى أن تكون هذه علامة من علامات الجنون!

*** *

حاربوا أعداءَكم بكثرة القراءة ومصاحبة الكتب وإنشاء المكتبات المنزلية والعيش في أحضان العلم والأدب !

*** *

كثيرًا ما أعرضُ عن إتمام بعضِ خواطري إعراضِي عن الخمر والميسر، وذلك عندما أجدني مفتقرًا لبعض الألفاظ التي تستطيع التّعبير عن خلجات نفسي، وتعبّر عن مكنونات ذاتي المترعة بالسّأم !

*** *

أنا قلم حبرٍ داكن يمشي على الأرض، فقط أحتاجُ لأناملَ ناعمةٍ تحملني وتداعبُ أفكاري!

من سبعٍ وعشرين سنة وأنا أكابدُ مشقّة العِلم والتّعلّم، ولم أصل بعدُ إلى ما أصبو إليه! ولا أظنّني سأصلُ؛ فكلّ يوم اكتشفُ شيئًا جديدًا في العلم والفكر والأدب! وفي اكتشافي للجديد اكتشافٌ لجهلي! ومع المحبرة والقلم والكتاب إلى أن ألقى الله!

*** *

قالتْ لي كاتبةٌ- يُعجبنِي حَرفُها-: وضعكَ للإعجاب على ما أكتبه يَكادُ يُشعرني بالغرور!

فقلت لها مازحًا: جميلٌ جدًّا أنّكِ أخبرتِني؛ لكي لا أزيدُ على الإعجاب تعليقًا، فتصابينَ بمرضِ نونِ الجَمَاعة.

*** *

من أجمل هواياتِي على الإطلاق: ممارسَةُ التَّفكير، والتَّوغّلُ في أعماقِ هذه النَّفسِ التي تتلبّسُني، والتّنقيبُ عن المعاني التي يمكنُ التقاطها من دنيا النّاس وعالمِ الكتب، بعينٍ شاخصةٍ كأنّها عينُ ساعاتي!

*** *

من أغرب خصالي في المُطالعة أنّني أعيدُ قراءَةَ كتبٍ كنتُ قرأتها سابقًا، وفي مكتبتي المنزلية آلاف الكتب التي لم أقرأها بعد، ولا يمكن أن أقرأها كلّها، ولو أنفقتُ كلَّ عمري في سبيل ذلك !

كلما جلستُ مع أفكاري على ضفاف الذكريات الهاربة تجود عليّ بأطيب المعاني وأحلى العبارات، وبعد وقت قصير من تسجيلها أستغرب متسائلًا: هل أنا الكاتب فعلًا؟ فيأتيني الجواب: التزم الصدق فيما تكتب، ولا تخف فإنك بأعيننا.

*** *

لمُحاربة الأمّية في بلاد التّخلف سنحتاج لسيوف هندية تبرقُ حِلْمًا وعلمًا؛ نضربُ بها أعناقَ الجهل التي أينعتْ وحانَ قِطافُها !

*** *

قرأتُ من الرّوايات والحكايات والقصص العربية والغربية ما لا يأتي عليه الحصر، ولم أجد أروعَ من حكاياتِ جدّتي!

*** *

نشكو إلى الله غربةَ الأدب، والعيشَ وسطَ أناس لا يفرّقون بين الشّعر والشّعير!

*** *

إنَّ أقلامَنا ستظلّ نائمةً في أحضان الخُمول ما لم تغتسل بماء التّمرد؛ وتخرج من شرنقة التّقليد !

*** *

لو عذرنا كل شاعر بدعوى المجاز؛ لأصبح الشّرع لعبة في قريحة الذين في كلّ واد يهيمون !

*** *

القراءة تصنع منك إنسانًا آخر لا علاقة له بسيرتك الأولى!

*** *

كُتب علي الوردي كالخمرِ والميسر ضرّها أكثرُ من نفعها !

*** *

القراءة في كتب الفلسفة تورثك الشّك في نفسك وفي الكون والحياة، وتجعل منك تلميذًا غبيًّا لا يحسن شيئًا إلا طرح الأسئلة!

*** *

قال لي شيخي وأستاذي محمد بن إدريس بلبصير في آخر لقاء بيننا في بيته العامر قبل أسبوعين: النّاقد يكون مُحمّلًا بثقافة ثقيلةٍ وحين يصطدمُ بالنّص ينفجرُ !

*** *

أقلامنا أكبادنا تمشي إلى الهاوية في زمن الضّياع !

*** *

قديمًا كنت أجوعُ لأشتريَ كِتابًا، واليومَ صِرتُ أبيعُ كتبًا لكيْلا يجوعَ أبنائِي !

*** *

حينَ تذهبُ زوجِي إلى أهلها، أشعرُ بطفولتي الهاربة وقد رجعت إليّ وأنا بجانب والدتي "حفظها الله" أتناول وجبة الغداء، تدفع إليّ بالأكل وتقول لي: كل يا ولدي كلْ، إنّك لم تأكل جيّدًا، يا صغيري لمَ أنتَ ضعيف في الأكل.!

*** *

قالتْ لي: اسمكَ جميل، فهو اسم أدبي صِرف يا ربيع!

فقلتُ لها: إنَّ هذا الاسم انبثَقَ من بين رُكام الأسامي الخَشِنة التي كانت مُتداولةً في ذلك الزمان، فاختارته لي أمِّي- متَّعنا الله ببقائها- وكانَ لها ذوق رفيع رغم أميَّتها، فهي لم تزُر المدرسة في يوم من أيام حياتها، ومع ذلك فقد أخبرني الثِّقات من أهل قبيلتنا أنَّها كانت ذوَّاقة لكلِّ جميل، مُحبَّة للحياة رغم قساوتها، والحزن الذي خلَّفه موتُ أبي!

*** *

من غرائبي في هذه الحياة أنّي قد أطربُ لرؤية رجلٍ من عامّة الشّعب في حديقة أو حافلة أو قاعة انتظار وقد دفنَ وجهه في كتاب، ولا أحفل بآخر من عِلْيَة القوم يمتطي سيارة فارهة وبجانبه امرأة جيّدة الصّنع !

نسيتُ البارحة هاتفي مفتوحًا، فأيقظتني رسالة من صديق بعد الثّالثة صباحًا، مفادها.. أستاذنا هل تنصحني بكتاب الحيوان للجاحظ؟!

فكظمت غيظي، وأجبته: أنصحك به وبكتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني!!

****

من لطيف ما يُستحضر: ذهب بعض العرب الكُسالى إلى كوكب اليابان من أجل العمل، فأصبح في اليوم الأوّل نائمًا إلى حدود السّاعة العاشرة صباحًا، فجهّز له اليابانيون الكفن ولوازم الدّفن اعتقادًا منهم أنّه قد مات!

****

بعد انصرافي من صلاة الظهر اليوم رأيت وأنا قافل إلى بيتي صبية تتّجه إلى مدرستها بلباس يظهر ثدييها بارزين كأنّهما حُقّان، فقلت في نفسي: هل هذه ذاهبة للمدرسة أم لترضع أطفالًا!

****

إذا وجدتَ صديقك على معصية فتلطّف في نصحه، وارفق بحاله، واعلم أنّه في داخله كاره لها غير راض عنها، لكن إذا وجدته يستمع ويحبّ هذا الدّجال الأثيم الذي يقال له "عدنان إبراهيم" فازجره زجرًا رادعًا، وقل له فيه قولًا عظيمًا، وحاول أن تعينه على رجم هذا الصّنم المقيم في داخله المحبّ لأفكاره النّتنة !

ابني أسامة حين يراني جالسًا فارغَ اليدين، يخرجُ كتابًا من بين الرّفوف أو من فوق الطّاولة القائمة بجانب السّرير ويضعه في يدي، كرّرها مرّتين أو ثلاثًا هذه الأيّام؛ فقد اعتادوا على رؤيتي منغَمِسًا بين الكتب. اللّهمّ لك الحمد على هذه النّعمة !

*** *

قلمي هذا الضّامرُ قريبًا سيعتريه الخمول وسيموت كما تموت العير، وسيصابُ سِنّه بالصّدأ قبل أن ينفد مِدَادُه في بِيئة لا أوراقٌ فيها ولا أملُ !

*** *

إن أكثرَ الناس قد تعوَّدوا على الكذب ومَرَدُوا على النفاق، وإذا واجهتهم بالحقيقة والصدق وعدم المجاملة تمنَّوْا لك يومًا كيوم عاد وثمود!

*** *

في الجاهلية كانت المعركةُ تدوم بين القبائل والعشائر لسنوات طويلة من أجل أمور تافهة، لا ينامون أبدًا على ضيم أصابهم، أما نحن في زمن الإسلام "كما نزعم" فحقوقنا تنتهك، وأراضينا تُسلَبُ، وأوطاننا تُستعمر، وخيرات بلادنا يستبد بها الطغاة والمجرمون، ومع هذا الخزي والعار لا نحرك ساكنًا، لسان حالنا ومقالنا: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ "المائدة: 24"!

إذا كنت منصرفًا عن اللهو والعبث، قالبًا للموبقات ظَهْرَ المِجَنّ، فلا تعتقد أن ذلك بإرادتك وقدرتك، مستخفًّا بغيرك من العصاة، لكنها رحمة من الله أدركتك لأسباب لا نعلمها، منَّ عليك بها؛ فاحمده، واسجد، واقترب، واخفض جناحك لإخوانك من المذنبين! وادعُ لهم بالهداية عند شروق الشمس وعند الغروب!

****

حينَ أسمعُ هذه المقولة: "للبيت ربٌّ يحميه" في كل حادثة يُبتلى بها المُسلمون، أعلمُ يقينًا أن المستدلَّ بها جبانٌ رِعديد غارق في وحل الإرجاء والتجهم؛ فهي مقولةٌ لتعطيل الجهاد، ولسنَّة التدافع.

****

بعض أدعياء السّلفية يصفون النّاس بالعوام، وفي اعتقادهم أنّك بمجرّد أن ترخيَ لحيتك وتحفّ شاربك وتقصّر ثيابك تصبح من الخواص.. منطق يهود يصرف "نحن أبناء الله وأحبّاؤه"! نعوذ بالله من الغرور !

****

جلستُ في حديقة أتحدث في "الهاتف" باللغة العربية الفصيحة إلى صديق من بلد عربي شقيق، فمرتْ بعض النساء بقربي وعيونهن تتسلق جسدي وملامحي؛ بحثًا عن شيء يميزني عن "المغاربة"، فلم يظفرن بطائل، فاكتفين بالحوقلة، وانصرفن إلى

حال سبيلهن وعلى ملامحهن مسحة من العجب والاندهاش، وكأنني جئت شيئًا إدًّا!

*** *

بعضُ أدعياء السّلفية اعتناؤهم بإعفاء اللّحية وتقصير الثّياب أكثر من اعتنائهم بصلاة الصّبح في جماعة، وبرّ الوالدين، والإحسان إلى الجار !

*** *

في بعض الأحيان يستبدّ بِنَا الغضب ويخوننا التَّعْبِيرُ فننسى كلّ ما تعلّمناه وقرأناه من أحكام وآداب، وما ذاك إلّا بسبب البِيئة السَّيِّئَة التي ابتلينا بالعيش في أحضانها والأخذ عن سفهائنا، وهذا شيء وُجِد حتّى في الزّمن النّبوي، فهذا أبو ذَرّ- رضي الله عنه- نال من رجل وعيّره بأمّه، فشكاه الرّجل إلى النبيّ صَلَّى الله عليه وَسَلَّم، فعاتبه النَّبِي بقوله: يا أبا ذرّ أسببتَ فلانًا؟ قال نعم. أفنِلتَ من أمّه، إنَّك امرؤ فيك جاهلية! والحديث متّفق عليه

*** *

إذا أردت أن تعرف حقيقة قوم مسلمين؛ فانظر إلى تسوية صفوفهم حال قيامهم في صلاة الجماعة، فإما أن تشهد لهم بالتميز وهم كالبنيان المرصوص، أو تحكم عليهم بالتخلف وهم متفرقون كأنهم أعجاز نخل خاوية !

يَسترُ الحليمُ سبحانَه فضائحَ قومٍ بستره الجميل، ولو علمَ الإنسان الظلومُ الجهول بفضيحة واحدة منها، لجعَلها تطير في الآفاق، وتسير في المجالس والمحافل مسيرَ الشمس والقمرِ والسعادةُ مِلْءُ حَناياه كالنسيم!

عندما أعفيتُ لحيتي أولَ مرة وأنا في مَيْعَةِ الشباب، زارَ والدتي كثير مِن بني قومنا لمواساتها؛ اعتقادًا منهم أنّي قد أصبتُ بخبَلٍ أو جنون!

***

عندنا في المغرب لا قيمة للجلسات إن لم يتوسّطها إبريق شاي يقف بشموخ كأمير من أمراء الدّولة الأموية !

***

كل إنسان في هذه الأرض في أعماقه رواية مأساوية، لكن لا يجد لسانًا فصيحًا لسردها؛ لذلك نجد أغلب البشر يكتفون بترجمتها إلى دموع.

***

غريبٌ أمرنا؛ بدلَ أن نزِنَ الكلامَ قبلَ النّطقِ به، نلقيه كما اتّفق، ثمّ نعتذر للمُخاطَب: أرجو ألا تفهمني خطأ فإنّني لم أقصد !

***

لا تجعل من الإسلام مظلة تتقي بها أمطار أزماتك ونكباتك، حتى إذا انجلت عن سمائك تخليت عنها!

***

جو رائع يغري بالجلوس إلى النّفس، جلسةَ تأمل ومصارحة ومكاشفة واعتراف تحتَ ظلال النّقد الذّاتي !

***

ومن لي بعزلةٍ طويلةٍ تحجبُنِي عن الخلْق وتقرّبُني من الخالق في زمن أصبح كلّ شيء فيه يدعوك إلى معصية الله !

***

منذ صِغَري وأنا أكره أن أكونَ في رواية الحياة مجردَ شخصية ثانوية لا قيمة لها ولا عنوان.!

***

عندنا في المغرب مثل شّعبي يقول: "قَطْرَانْ بْلاَدِي ولا عسل بْلَادات النّاس"! لكنه مثل لا قيمة له عندي، أنا أحبّذ الإقامة في أيّ بلد من بلدان الله ولو كان هذا البلد إثيوبيًّا أو زامبيًّا أو الموزمبيق بشرط أن تُحفظ كرامتي كوني مواطنًا، وقيمتي باعتباري مسلمًا !

***

راسَلني قبل أيّام شابّ حديث عهد بصداقتي، فلمّا أبطأتُ عليه في الإجابة لانشغالي؛ قال: تواضعْ يا رجل، هل تظنّ نفسَكَ سيبويه أو الكسائي!

اصنع من الخطوب ورودَ فلّ وياسمين، وقدّمها هدية لليأس الذي يكاد يفتك بك، وقل له: إنَّ ربّي يسمع ويرى وليفعل بي ما يشاء !..........

***

كان يمتاز بذكاء حادّ لكن شغفه بالنّساء كان كثيرًا ما يقف حاجزًا بينه وبين ما يصبو إليه !

***

قالت لي أشعر بالملل يا ربيع الأدب، فما الحل؟ فقلت لها: الحل هو أن تمنحيني وقتك لأقرأ فيه كتاب لسان العرب لابن منظور !

***

تَعبتُ من اجْترَار الأحلام وقد بلغتُ من الكِبَر ما يجعلني أستيقظ من أوهامي !

***

قديمًا تعلمت من الحكماء أن أكون صموتًا، لكن بعد مرور الأيام وكرّ العيش وجدت الثرثارين من أقراني في أعلى المناصب، بينما أنا حلس بيتي أعاقر الخمول في أحضان الركود !

ليس حسنًا، بل قبيحًا.. أن تتّهم ذوقَ غيرك بالفساد؛ لأنّكَ لم تجدْ له أثرًا طيّبًا في أعماقك !

***

مِن أكبر الأخطاء التي نرتكبها في الحياة مُعاتبتنا لإنسان نعتقده يستحق محبتنا، فيدفعنا حدبنا عليه إلى ذلك، لكن الندم يستبد بنا بعد معرفتنا بلؤمه، وأنه لا يستحق إلا التجاهل والرمي في سلة المهملات!

***

كلُّ علاقة بين البشر مَصيرُها إلى زوال ما لم تُبْنَ على قواعد من الاحترام، وأسس من المحبة الخالية مِن شوائب الطمع!

***

الإنسانُ حيوانٌ بطبعه، ولولا الأنبياء والرسل لأَكَل بعضنا بعضًا؛ لذلك نجد أكثر الناس وحشية وانحلالًا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر!

***

ما أقسى الأيامَ حين تتشابه على إنسان لا يمارس شيئًا في الحياة سوى القيل والقال، وكثرة السؤال، وتمديد الأرجل في المقاهي والطرقات؛ لتوزيع النظرات على مفاتن النساء المتبرجات، كأنّه الضلال بن السَّبَهْلَل!

هذه الأيام تنبعث من أحلامي رائحة كريهة كرائحة الفقر والضياع، كلما جنح الليل، وغشيني النعاس، وأحدقت بي الهموم!

***

يقول أصحاب المبالغة في التفاؤل: أجمل الأيام لم تأتِ بعد! وأنا أقول: الأيام الجميلة ماتت بموت جدتي الحنون، ودفنت معها في حفرة ضاحكة من تزاحم الأضداد!

***

في زمن الجاهلية؛ نادرًا ما تجد الرجل يموت موتًا طبيعيًّا، أو على فراش المرض، بل كانوا أحد رجلين: "قاتل أو مقتول"، وعلى أتفه الأسباب!

ألم أقل لكم: إنّ تاريخ البشرية مؤسف؟!

***

نحن في زمن قد يحترمك الإنسان؛ لأن لك لباسًا فاخرًا- ولو كنت أبا جهل وأبا لهب!- وقد تسقط من عينيه؛ لأنه رأى إصبع رجلك الكبير يطل من جوربك المثقوب!

***

ثلاثُ كلمات أتضايقُ منها في اللُّغة العربية: "لكن" التي للاستدراك، و"ليْتَ" التي للتَّمني، و"غَادَر" التي بمعنى تَركَ؛ لأنَّها شبيهة بكلمة "الغَدْر" التي معناها الخيانة والغشُّ والخِداع!

*** *

علَّمتني الحياةُ أن الضَّعفَ البشري يستوي فيه الذَّكرُ والأنثى، البَرُّ والفاجرُ، الملتحي والحليق، المنتقبة والسَّافرة، وهلمَّ جرًّا!

*** *

أجملُ حريَّة على الإطلاق حرِّيةُ التَّفكير، فلا أحد يستطيع محاسبتك على ذلك وإن كان تفكيرًا سلبيًّا؛ ما لم تُصرِّح!

*** *

لا تعرفُ كيف ترفع الحدثَ الأكبر عن نفسها ومع ذلك فقد أنفقت أكثر من سنتين من عمرها في البحث والتنقيب عن عالم خامل ومخطوط له ابتلعته الأرَضة !

*** *

سألت صديقًا: هل سبقَ لك قراءة بعض الروايات؟! فقال: طبعًا، رواية ورش، ورواية حفص! فقلت له: خيرًا فعلتَ، ما عنوانهما؟! فلم يُحِرْ جوابًا!

إنَّ الجهلَ في أمّتنا في هذا العصر قد صارَ له أتباع ومريدون أكثر من أتباع المعتزلة في العهد العبّاسي !

***

بائعة الورد أهدتني وردةً وجدتُ شذاها يفوح في أعماقي اليابسة، وبائعة الهوى ملأت صدري حسرةً وندامة بعد فوات الأوان واستبداد الذّل والهوان.!

***

كثير من الناس يرون السعادة في سيارة فاخرة، وفتاة باهرة، ودار على الشاطئ ظاهرة، لكنني أراها في الخَلْوة بكتاب الله وصحيح البخاري.

***

بعض أدعياء التَّدَيُّنِ يُقلِّدون الشيخ الألباني في قوله المتواضع: "وما أنا إلا طُوَيْلبُ علم"، حتى إذا خالفهم مخالفٌ، أو فنَّد أقوالهم عالمٌ، أظهروا من الكِبْر والصَّلَفِ والعَجْرَفةِ والغَطْرَسةِ ما يَشهَدُ لتواضعهم بالبطلان.

***

كم يبدُو الإنسانُ سخيفًا حينَ يتكلم في غير فنِّه، وصدقَ الحافظُ ابنُ حَجَر: مَن تكلَّم في غير فنه أتى بهذه العجائب! فكيفَ لو كانَ المتكلم لا فنَّ له؟!

إنّ النّفس حدثتني وهي قائلة بعدما رأتني متضايقًا منهارًا: أيها الربيع، ما ينبغي لك أن تكره الحياة وما زال فيها كتاب الله يُتْلى رغم أنف الزنادقة والكفرة والمنافقين!

*** *

يُخيَّلُ إليَّ في كثير من الأحيان أنني مجرد خطأ مطبعي فاحش في كتاب من كتب المغاربة!

*** *

أصبحت أجتنب الطريق التي كنت أسلكها لزيارة جدتي الحنون، أما بيتُها فقلبي الصغير أضعف من أن تكون له الشجاعة للذَّهاب إليه!

*** *

المطر يثير في قلبي شجنًا وحزنًا بقدر ما يمنحني من سعادة، فهو يذكّرني بالغالية حين كانت تجلس متربّعةً على فَرْوَة خروف ناصعة البياض، ونحن حولها كلّ مساء تصبّ لنا شايًا ساخنًا نرتشفه مع خبز ناضج وزيت زيتون لذيذ لا نشبع منه !..آه يا جدّتي في حماك كانت لنا أيّام..رحمة الله عليك !

*** *

قالت لي ما الدّليلُ على وجود الله !

فقلتُ لها ببراءة: وجودي أكبر دليل وأقواه على وجوده سبحانه !

*** *

نعمتان مغبون فيهما كثير من الطواغيت: تطبيق شرع الله، والجهاد في سبيل إعلاء كلمته!

*** *

خطيبُ الجمعة كان عنده الكثير ليقولَه، لكن عربيته الهزيلة لم تسعفه، فاستعان بالعاميّة، فتحوّل من خطيب إلى مُهرّج !

*** *

السّماءُاليومَ بكتْ في مدينتي بكاءً مُرّا،وابتسمت الأرض والأطفال والأشجاروالعصافير ،واختفت الغواني والمتبرّجات، وقد كنّ قبل ذلك يملأنا لقبائل والأحياء كالذّباب الذي كلّما ذُبَّآب !

*** *

إذا ابتُلِيتَ بالمَشاهد المحرَّمة، وكنت متَّبعًا لهواك في حلِّك وترحالك، فلا تجعل أبناءَك وأهلَ بيتك يشاركونك هذا الإجرام؛ لكي لا تكون حمارًا في مِسْلاخ إنسان!

أغلبُ النّاس عندهم فراغٌ عاطفي، وأنا عندي فراغ في مكتبتي لاسيما كتب التّاريخ والفقه الحنبلي!

*** *

تاركُ الصّلاةِ كافرٌ مرتَدّ عند كثير من العلماء، وتاركُ القِراءة ما حكمُه إذا استحضرْنا أمرَ اللهِ عزّ وجلّ "اقرأ"؟!

*** *

ولقد جرّبتُ اللّذائذَ كلَّها إلاّ لذّة القُرب من أبي والشّعور بحنانه! فقد أسرعتْ إليه يدُ المنية قَبْلَ أن تستوفيَ طفولتي حظّها منه.

*** *

الحبّ والفقرُ والسّجن والاغتراب من أهمّ الأشياء التي تعين الكاتب والأديبَ والشّاعر على الإبداع !

*** *

مِنْ ضَعْفِ تاء التّأنيثِ أستمدّ قوّتِي، وبها أستعينُ على شَقِّ طريقي نحو الخلود!

*** *

تَخرجُ إلى الشّارع بكاملِ زينتها وسُفورِها وتهتّكِها، وعطورُها تنادي على الرّجال: هِيتَ لك! حتّى إذا عادتْ إلى بيت زوجها

"الغلبان" ألقتْ عصا التَّجوال ونزعتْ عنها فتنتَها لتعودَ حليمَة إلى ملابسها القديمة، المُنتنة برائحة الثّوم والبصل والعرق وبول رضيعها، استعدادًا للنّوم كما تنامُ الأنعام. وصدقَ من قال: تكون في البيت مثل "السيكليس" وفي الشارع كأنّه يوم زفافها.

****

في رمضان الفائت جلستُ إلى الشّيخ الأديب محمد بن إدريس بلبصير في بيته بعد صلاة التّراويح، وبعد حوار جميل ونافع كالعادة ذكرت له أنّني أبحث عن جهاز "كمبيوتر" ثابت؛ لأنّ المحمول يرهقني في الكتابة! فقال لي ضاحكًا: إيّاك أن تقنيه مستعمَلًا! فهذه الأجهزة المستعملة كبعض النّساء المتزوجات لا تظهر عيوبها إلّا بعد مرور الأيّام.

****

إذا أردتَ أن تسديَ نصيحةً لبعض المخلوقات العجيبة من الذين ينتسبون لبني الإنسان فيجبُ عليك أن تشهرَ سيفًا، وتعتمرَ قبّعة من حديد، وتلبس درعًا صابغًا من نُحاس اتّقاءً واستعدادًا وتحسّبًا لأيّ هُجوم قد يُباغتك به المنصوحُ.

****

لا تحرصْ على الحياة كما لو أنّكَ خالدٌ في حدائقها الغنّاء التي تسرّ المخدوعين، ولكن اجلس منها كما يجلس الذّئب من القوم الذين يحسّ منهم الرّيبة وعدم الأمان، فهو على استعداد دائم من خطر قد يداهمه، كما قال الشّاعر عنه :

ينام بإحدى مقلتيه ويتّقي بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

❋❋❋

قال لي :

كيفَ أتوب والفتنة تتربّص بي الدّوائر، في بيتنا أمّي لا تجد أدنى حرج في إبراز محاسنها أمام أبنائها، وأختي لا تستر من جسدها إلّا العورة المغلّظة، وفي التّلفاز لا تسأل عن الخبر، وأمّا شوارعنا فقد تحوّلت إلى غرف نوم في ليلة حميمية الهوى، وفي الجامعة تجلس بقربي فتاة فاتنة عطرُها يناديني "هَيْتَ لك".!

❋❋❋

أحيانًا حِدَّةُ الذّكاء وشدّة الدّهاء لا تغنيان شيئًا في مواطنَ الابتلاءات والمِحن، ينسى المرء نفسه في خضمّ بحر من الخوف والجبن، ويصبح يلتمس الفرار يومَ الزّحف، وينشد النّجاةَ لنفسه، بعدما يزيغ بصره، ويبلغُ قلبُه حنجرتَه، ويظنّ بالله ظنّ الجاهلية، بل يصبح حائرًا مُتسائلًا، لا يدري أشرّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربّهم رشدًا.

حين كنت في أحضان الألم نسيتُ كلّ ما كنت قرأته في أطيب سنوات عمري من كتب في مختلف الفنون، فلم أتذكر إلّا قول الله سبحانه: ﴿**واتّقوا يومًا تُرجعون فيه إلى الله**﴾ !

*** *

العقلاء وحدهم من يفهمون أنّ شَهادةَ العدوّ على عدوه لا تقبل ولو كان يقوم اللّيل ويصوم النَّهار، ويذكر الله قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه !

*** *

المنازلُ الخاليةُ من "الرِّجال" تكونُ "في الغالب" مظنّةً للفوضى والتّخبّطِ الارتِجَالي !

*** *

رأيتُ فيما يرى النّائمُ أنّني عيرّتُ رجلًا بأمّه، فعاقبتُ نفسي بمنعها من الدّخول إلى المكتبة لمدّة شهر !

*** *

وكانَ إذا حزَبَه أمرٌ فزعَ إلى السّيجارة، لسانُ حاله: أرحنا بدخّانها يا شيطان!

*** *

الفقرُ يُعلِّمُكَ في شهر ما لا تعلّمُه لكَ الكتبُ في سنة !

الشُّيوعِيَةُ كاللّذةِ المحرّمةِ ممزوجة بالقُبح حَالَ اعتناقِها، ومثمرة للألم بعدَ معرفةِ ضلال أصحابها!

*** *

لا يوجدُ إنسان فيه خيرٌ محض، ولا شرّ محض، ولكن كلاهما يتصَارعان داخلَه، فالغالبُ منهما هو الذي يظهر من خلال تصرفاتِه وأفعالِه.!

*** *

الحَدَاثةُ مدرسةٌ إذا أعددتَها أعددتَ جيلًا مُخنّثَ الأفكار !

*** *

العَلمانية اسمٌ جامع لكلّ ما لاَ يحبّهُ الله ويرضاهُ من الأقوال الظّاهرة والباطنة!

*** *

رَوعةُ الحياةِ تَكْمُنُ في عَدلِ الحَاكمِ واستقامَةِ المَحكومِ !

خطيبُ الجمعة اليومَ أخطأ في أكثر من ثلاثين موضعًا في اللّغة العربية فقط، أمّا الأحاديث النّطيحة، والمُتردّية، وما أكل الدّيناصور فحدّث ولا إثم عليك !

حسبنا الله ونِعمَ الوكيل !

بَرامِجُ القناة الثّانية المغربية تقطرُ فسادًا وضياعًا وتشرّدًا، وتذهب بالمُشاهد المغربي "الدّرويش" إلى جهنّم من حيثُ لا يشعر !

*** *

كلّ هذا الغيث الذي يمنّ الله به علينا إمّا أن يملأ جيوبَ الخَوَنَة، أو يهدمَ البيوت على رؤوس الفقراء ويسدّ طرقهم المُهترئة المعوجّة!

*** *

لستُ مقهى يَقصدُ إليهِ أربابُ البِطَالة لتزجية الوقت ودفع المَلَل ومدّ الأرجُل؛ فافهموا حكمةَ الباري !

*** *

كنتُ أفكّر في الزّواج بامرأة ثانية، لكن حين تجاوز عدد الكتب في خزانتي ألفي كتاب أحجمتُ !

يا بُنيّ: إيّاك والزّواج بامرأة إلكترونية المشاعر، فقد تقول لك اليوم "أحبّك" وغدًا تقول لغيرك "أموت فيك" !

*** *

يا بنيَّ: إيَّاك والزَّواج بامرأة اهتمامها بأظافر رِجْلَيها ويديْها أكثر من اهتمامها بكتاب ربِّها.

ليل الصّيف قصير يحول بيني وبين مناجاة القمر! فيمرّ الوقت سريعًا كأنّه البرق أو كأنّه الخطرْ!

*** *

لولا والدتي- بعد الله- لما كتبتُ سوداءَ في بيضاء، ولا امتلكتُ كلّ هذه الخزانة من الكتب! ألم أقل لكم سابقًا: من تاء التّأنيث أستمدّ قوّتي !

*** *

اللهمّ ارضَ عنها يا ربّ وارزقنا وإيّاها التّوفيق والسّداد وحسنَ الخاتمة!

*** *

قالتْ لي والدتي: هل يجوز يا ربيع، الصّلاة بهذه الجوارب التي فيها صور قطط؟ فتبسّمتُ ثمّ قلتُ: يجوز يا أمّي، ولو كانت فيها صور الحُمُر الوحشية، المهم هو ألاّ تُعلّق هذه الصّور من ذواتِ الأرواح في الحيطان، وتعظّم في النّفوس !

لا أجدُ لذةً في تتبّع عوراتِ من يُخاصمني، "فكلّي عوراتٌ وللنّاس أعينُ" !

*** *

قال لي صديق: إنَّ لي أعداءً وحسّادًا وحَقَدَة، فكيف السّبيلُ لاتّقاء شرّهم؟ فقلتُ له: استعن بالله، ثم بكثرة النّظر في كتب ابن تيمية !

***

المبالغة في التّفاؤل في زمن التّشاؤم مجازفة وجهل؛ ومهدّئات يجود بها علينا أصحاب المذهب الرّومانسي الغارق في الخيال !

***

لا تمدحْ البداياتِ، لكن حدّثني عن النّهايات كيفَ كانتْ، حدّثني عن الفَرَس الذي وجدتَ نفسك تحته بعدما انجلى الغبارُ، ولا تخبرني عن حمارك الذي وقفَ بك في منتصف الطّريق !

***

يا ويحَ من أدركته حِرْفَةُ الأدَب ولعنةُ الحبّ وفِتْنَة الرّبيع !

***

في زمن الفتنة يصرخ الرّجل الخائف على دينه من النّساء "ليتني كنتُ عنّينًا" !

***

بعض خواطري الجميلة قليلةُ الأدب لا تزورني إلا في الحمّام !

إشاعة البهجة في صدور الحزانى والمهمومين من أفضل القربات!

*** *

تسرّبَ إليّ الحنينُ إلى دياركم يا أمّ هند واعترتني الأشواق، فهل إلى اللّقاء من سبيل!!

*** *

في دواخلِ أكثر البشرية وحوشٌ شَرِسةٌ تظهرُ بوضوحٍ عند الغضب والطّمع !

*** *

لا تبنِ قصور مجدِك على أنقاض تعاسة غيرك فيكون مصيرك مزبلة التاريخ ووحل الجغرافيا!

حين تَشعر بتعثر عاطفي، خذ ورقة وقلمًا، واكتب: ليسَ على هذه الأرض ما يستحقّ الحياة!

*** *

لا يعرف الإنسان حقيقة إنسانيته إلا بثلاثة أشياء: العاطفة، والحبّ، والتّفكير !

*** *

ما خلا أديبٌ بأديبة إلا كان أبو نواس ثالثَهما "إلا من رحم الله"!

كم أتمنى أن أستيقظ يومًا فأجدَ أن هذه الحياة برمتها مجرد حلم.

***

ابتُلينا بالذّم فصبرنا، وابتُلينا بالمدح والإغراق في الثناء فلم نصبر !

***

شقي من لا يطرق باب ربه إلا بعد فقدان الأمل.

***

أهدته وردةً حمراءَ قانية، اختلطَ شذاها بأنفاسِ عشيقها القديم، فأسرّ خيانتَها في نفسه ولم يُبدِها لها حتى يستكمل قضاءَ وطرِه اللّئيم...! ضاعتِ العاشقةُ والعشيق!

***

نصحها بالقراءة وألحّ عليها في ذلك حتّى استجابت، فتخلّت عنه بعد أوّل كتاب اكتشفت لذّته !

***

أتعبهُ البحثُ عن امرأة تكون عاشقةَ كتب مثله، فلمّا وجدها انشغلتْ عنه ليلةَ الدّخلة بكتب في خزانته لم تطالعها من قبلُ !

***

دلّها على مواقع الزّلل في كتاباتها فشكرته بلطف، ثم حظرته بقسوة !

تعرّف عليها على موقع "فيسبوك" فطلب رؤيتها فأرسلت له صورة فتاة وجدتها في جهاز أخيها، فصُدم برؤية أخته !

*** *

قدّمها لقرّائه ومتابعيه وأثنى عليها ثناءً مبالغًا فيه، وبعدما امتلأت قائمتها التي كانت خاوية على عروشها، حذفته لتفسح المجال لغيره !

*** *

باسمها الحقيقي تدخل إلى هذا العالم الأزرق "فيس بوك" بكلّ احترام وتقدير وأدب، وباسمها المستعار "البديل" تطلقُ العنان لشهواتها في غير رفق واضعةً صور عشيقها بكلّ جرأة، وزوجها الدّيوث "في دار غفلون" لا يعرف شيئًا عن الغروب!

*** *

لو لم يكن اسمي "ربيع السملالي" لسميت نفسي: بسَّامَ بنَ طلق المُحيَّا، فقد تعبت ملامحي من التجهم والحزن!

*** *

ما زلتُ أنتظر ذلك اليوم السعيدَ الذي أخبرنا عنه غلاة التفاؤل، الظاهر أن القبر سيكون أقربَ إليَّ من ذلك اليوم الموهوم!

*** *

تتغيّر نظرتنا إلى الأشياء بالحبّ وتقادم الزّمن والإقبال على الله بقلب منيب.

*** *

أن تختاري العيش في كنف رجل أدركتْه حرفة الأدب يعيش في سبيل الكتب، ويحيا في أحضانها، ولا يفارقها إلا لضرورة ليس له منها بد؛ يعني أنكِ اخترتِ الشقاء والضياع لنفسك، وأنت امرأة رقيقة الحس والأنوثة، تحتاجين مَن يقدّر كلَّ ما فيك من جمال، لا رجلًا كل اهتماماته بغبار مجلداته، وترتيب أوراقه، وبَرْي أقلامه، والانصياع لأفكاره المتوحّشة وقلمه الصّعلوك ابن الجارية !

*** *

سأمنحُ كلَّ أحلامي لأوّل قارئٍ أصادفه في طريق أقلامي والورق، لعلّه يكتشف السّر الذي من أجله كنت ومازلت وسأظلّ أكتبُ عنكِ. فيخفق قلبه وترتاح جوارحي.!

*** *

قرأتُ عليها رسائلي بعدما تقدّم الليل ونامت الحياة، فجادت عيناها بدموع لم تستطع لها حبسًا!

*** *

حين تتعدد الورود والأزهار، وتتكاثر على عتبة باب الأديب أو الشاعر، يفقد القلم توازنه، والإلهام مصداقيته، فيصاب بتخمة لا تُحمَد عُقباها، والبطنة تذهب الفطنة، واللبيب بالإشارة يفهم!

*** *

لمْ يبقَ أمامَ الرّبيع سوى التّردّد على باب قلبك لنظم قصيدة تليق بملامح وجهك الزّاهية، لعلّك تجودين عليه بقُبلة، ولمسة، وكلمة...أحبك!

*** *

قالتْ لي أحبّ الأدبَ جدًّا يا ربيع؛ فاسترقتُ النّظر إلى وجهها المشرق، ثم قلت بعدما تأكّدت من خلو المكان من الرّقباء: الأدب يا سيدتي له الشّرف أن تحبّه امرأة في مثل رقّتك وجمالك، ليتني كنت أدبًا والله؛ لأفوز بهذا الحبّ فوزًا عظيمًا، فابتسمت بدلال ثمّ قالت: أنت ربيعُه!

بنظرة منك انفلتت مني أيامي، وتلاشت كل أحلامي، ونسيت ما كان وما سيكون في مستقبل أحزاني!

*** *

حينَ أفكّر في ذلكَ اليوم الذي سنلتقي فيه، تضيعُ منّي ملامحي البريئة التي تشبه مدينتكم المنصورة بإذن الله !

قالت له: أحبّكَ بحجم السّماء، بل أحبّك كما لم أحبّ أحدًا من قبل، أنت منّي بمنزلة الرّوح من الجسد. أنتَ في خلاياي تنبضُ !

ثمّ بعد أيّام نزلت به فاقة، وألمّت به أزمة من أزمات الزّمان؛ فقلبتْ له ظهرَ المِجَنّ، ونأت عنه كما لو كان مرضًا يجب اتّقاؤه!

***

قلت لها: ما سبب غيابك؟ فقالت: موجودة، لكن لا أحب إزعاجك!

فقلت: بل لا تحبين سعادتي! فتبسَّمَتْ بذكاء، وأطرقت بحياء، وقالت: يا لك من شاب لَسِن، تأبى إلا أن تحوِّل كل حديث إلى مسرح للأدب والألغاز!

***

الحبُّ الذي يُبنى على الشهوة والانبهار، لا يُعمرُ طويلًا، مدتُه أسبوع على أكثر تقدير!

***

قالت لي: كيفَ قضيتَ يومَك؟

فقلتُ: قضيته بين دَفَّتَيْ كتاب، ورسالة عتاب "من تلك السّابحة في أحداقي"!

سأزرعُ لكِ في قَلبي شجرةً وارفةَ الظّلالِ، أستلقِي تحتَ رحمتِها كلَّما أتعَبنِي التّفكير، والمسير إلى جنّة الجلد؛ حيثُ دقّاتُ قلبك وزخّاتُ المطر.

*** *

أحبّها.. ليسَ لأنَّ فيها شيئًا مميّزًا تتمتّعُ به دونَ غيرها من النّساء، وليسَ لأنّها ذاتُ منصبٍ وثقافةٍ عالية لا تُدركها العقول والأبصار، ولا لأنّها رقيقةُ الأنوثة لدرجة لا يُقاومها الرّجالُ، كلّا وربّي. بل أحبّها لِثلاثِ خِصالٍ يَعشقُها قلبي وجوارحي: الهُــدوءُ وفنُّ الإصْغاء وسرعةُ الفهم.!

*** *

قالت لي ذاتَ مساء دافئ: اكتبني في خاطرة واجعل من قلبي مسرحًا للإبداع، فسعادة قارئك تهمّ خلجات غُروري!

فقبّلتُها، ولم أكتبْ !!

ما أجملَ قولَها لي كلّ صباح: أحضّر قهوتي لنبدأ الكتابة حبيبي !

فأدفن وجهي في كتابي وكلماتها تزحف إلى قلبي بلا تردّد منّي ومنها، منتظرًا قدومها عند آخر سطر !

*** *

لستُ أدري كيف تحبّ النساء رجالًا لا يدركون ماهيةَ الوجود، ولم يسبق لهم زيارة حديقة، ولم تحدّثهم أنفسهم بالاستماع إلى موسيقى بيتهوفن !

*** *

الحبّ قولٌ وعملٌ يزيدُ بالبّرِّ ولا ينقصُ بالجَفاء !

*** *

حين يأتي المساءُ أستسلمُ لذكريات طفولتي النَّائمة بهدوء في مخيّلتي المتعبة، أستلهِم منها أفكارِي وخوَاطري المكسورة بقلبٍ شارد، وقلمٍ مارد، وروحٍ خالية الجوانب بلْقَع!

*** *

حين يأتي المساء أعود إلى بيتي متأبِّطًا جريدة وخبزًا؛ لألقي بنفسي في هذه الفوضى، وهذا الركام من الكتب الصفراء والبيضاء التي تحيا فيها عقول أسلافنا الأماجد، وعلومهم، وذِكرهم الطيب، وسيرهم الحسنة، وكذلك كتب المحدَثين من عمالقة النثر والفكر والرواية والقريض.

السَّاكتُ عن الحبِّ ليسَ شَيطانًا أخرس، وإنَّ بعضَ الْحُبِّ إثمٌ!

*** *

لي زهرة واحدة تمتلِئ بها نفسي، وإن تعدّدت الحدائقُ!

نظراتُ الدّهشة المنبعثة إليّ من عينيك الحائرتين شكل من أشكال حرية القلب المُعنّى!

***

أعلنتُ عليها الحبَّ بعد طول صبر وعناء، فبكت بكاءً ذكّرني بأيّام صراعي مع الألم !

***

ما أضيقَ العيشَ لولا ابتسامةُ حبيبتي !

***

الكونُ كتاب مفتوح أَسْتَلْهِمُ منه أفكاري الأدبية!

***

الغروبُ لا يذكّرني إلّا بفناء العالم !

تبسُّمك في وجه حبيبتِك إحياءٌ لأنوثتها!

***

التحدث إليها يغري بالبقاء على قيد الأدب!

***

الألم في سبيل غيابك له طعم الوفاء!

***

أمسيت وأمسى الحب للكتاب!

***

نفسك إن لم تشغلها بالحب شغلتك بالكراهية!

***

من تدخَّلَ فيمَا لا يعنيه؛ فلَطْمَةٌ تكفيه!

***

أشعـــــرُ بالحبِّ في وطنٍ يعجُّ بالكراهية.

***

فهرس المحتويات